



هجْرَة الأفكار

جلبرت هايت

ترجمة

شفيق أسعد فريد

هجـرة الأفـكـــار

تأليف: جلبرت هايت
ترجمة: شفيق اسعد فريد

وزارة الثقافة



وزارة الثقافة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن
أمين عام النشر
محمد أبو المجد
مدير عام النشر
ابتهال العسلى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• هجرة الأفكار
• تأليف: جلبرت هايت
• ترجمة: شفيق اسعد فريد
• تصميم الغلاف: د. خالد سرور
هذه الطبعة 2013م
الهيئة العامة لقصور الثقافة
• رقم الإيداع: ١٧٧٦٢ / ٢٠١٣
• الترقيم الدولى: 7-512-718-977-978
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

المتابعة والتنفيذ
الحسينى عمران

هجــرة الأفكــار

مقدمة المترجم

أجمع الباحثون فى علوم الحضارة على أن الحضارة فى جوهرها ليست سوى حركة موصولة للأفكار والآراء وشتى ضروب الخبرة . . فالأفكار والآراء وشتى ضروب الخبرة تنتقل من فرد إلى فرد ، ومن شعب إلى شعب ، وتهاجر هجرة موصولة محرزة فى كل هجرة من هجراتها العديدة المتكررة نجاحاً جديداً وتقدماً موصولا ، ثم تظل تحرز فى كل يوم تقدماً جديداً إلى أن تبلغ المرحلة القوية الملموسة التى تجعل منها حضارة من الحضارات المرموقة .

وحتى هذه الحضارات لا تقف عند مرحلة معينة من المراحل مهما بلغت من الدقة والكمال ، لأن هجرة الأفكار تلك التى لا تتوقف ولا تتلكأ ، تحمل معها فى أثناء ترحالها بذوراً جديدة لأفكار جديدة ومن ثم لحضارات جديدة . وتظل تلك الحضارات تنتقل من مكان إلى آخر وتهاجر من شعب إلى آخر حاملة معها بذرة تقدمها ومقومات نهضتها ، إلى أن تتناولها عقول أكثر تقدماً وأكثر تحرراً ، فتجعل منها ثورة جديدة فى عالم الحضارة .

وأغرب ما فى هجرة الأفكار تلك ، أنها تتخذ فى كثير من الأحيان مسالك متعرجة وسُبُلا ملتوية غير واضحة المعالم. ولكن هذه المسالك المتعرجة وتلك السبل الملتوية كلها تسير فى خط لا يتعارض مع خط سير التاريخ نفسه . . فالتاريخ فى أوسع معانيه ليس سوى تسجيل عملى لتطور هجرة الأفكار ، وليس سوى تسجيل لتقدم خبرة الإنسان . ولكن التاريخ فى ذاته لا يروى قصة هجرة الأفكار بطريقة منتظمة موصولة الحلقات ، وإنما يجمع شتات عديدٍ من الحضارات نشأت فى أمكنة معينة وأزمنةٍ خاصة ، محاولا الربط بينها لاستخلاص الرابطة التى تجمع بينها ، أو محاولا إرجاعها إلى أصولها الأولى ومصادرها البكر .

ومن ثم كانت دراسة التاريخ – من ناحية تطور الأفكار – منقوصة غير كاملة ، لأن التاريخ مهما توسع فى البحث والتنقيب لا يستطيع أن يرد جميع الأفكار بعد تطورها وتجددها ، إلى مصادرها البكر الأولى . فهذه الأفكار إذ تهاجر من فرد إلى آخر ، أو من شعب إلى آخر لا تتخذ أشكالا خاصة محددة مقننة ، وإنما تعتورها أثناء هجرتها تغيرات سلبية وإيجابية ، وتطرأ عليها تطورات قد تكون تقدمية وقد تكون انتكاسية .

ولكن هذه التغيرات وتلك التطورات ، سواء كانت تقدمية أم انعكاسية ، لا تتقيد بأوضاع معينة أو بأساليب خاصة ، ولا ترتهن بمقومات عنصرية أو جغرافية أو بيولوجية ؛ وإنما تنطلق انطلاقاً حراً لا تحده حدود ولا تقيده قيود .

ولكن هجرة الأفكار تلك رغم ما تمتاز به من انطلاقٍ حر وحركة موصولة متجددة ، تحدد معالم التاريخ وترسم له خط سيره ، لأن هذه الأفكار هى التى تصنع الحضارة ، ومن ثم تصنع التاريخ .

وهذا الكتاب الذى أقدّمه إلى قراء اللغة العربية فى مصر وشتى الدول العربية الشقيقة ، يتناول بالدراسة الواعية مرحلة من مراحل هجرة الأفكار . وهو على الرغم من ضآلة حجمه وقلة عدد صفحاته ، يحوى من الأفكار الفذة الجريئة ما لا تتسع آلاف من الصفحات لتناولها بالتفصيل . فالمؤلف — وهو أستاذ جامعى متخصص — أراد أن يتناول بالبحث رؤوس موضوعات فحسب ؛ أما التفصيلات فقد ضرب عنها صفحاً خشية أن تتشعب الموضوعات وتفلت خيوطها من بين أيدى القارىء .

ولكن رؤوس الموضوعات هذه التى تناولها مؤلف هذا

الكتاب ، تفى بالغرض المقصود منها وتحقق الغاية المنشودة ، لأن دراسة هجرة الأفكار — كموضوع بحث — تحتاج أول ما تحتاج إلى عرض سريع للمبادىء الأساسية والأسس الفعلية التى تقوم عليها الأفكار ، كما تحتاج إلى تعريف عام سريع ببعض الأفكار الابتداعية التى انتقلت أو هاجرت من مكان إلى آخر .

وأعتقد أننى لست فى حاجة إلى تعريف القراء بمؤلف هذا الكتاب (جلبرت هايت) فهو أشهر من أن يُعرَّف ، كما أن مؤلفاته ومحاضراته العديدة تكشف عن اتجاهه . وحسبنا فى هذا الصدد أن نشير إلى كتابه « فن التعليم » الذى نشر باللغة العربية منذ بضعة شهور وأحدث ثورة فى أوساط التعليم.

وأخيراً آمل أن يجد القراء فى كتاب « هجرة الأفكار » الذى أقدمه إليهم فخوراً به ، ما يشبع ظمأهم إلى المعرفة .

والله أسأل أن يهدينا جميعاً سواء السبيل .

يوليو سنة ١٩٥٥ — شفيق أسعد فريد

فهرس

الصفحة

١

مقدمة المؤلف

هناك ثلاث موضوعات تستأثر باهتمامنا كلما انصرفنا إلى التفكير ... فقد نفكر فى البشر ، وقد نفكر فى العالم المادى ، كما قد نفكر فى الله .. وكل ما نتعلمه فى المدارس والجامعات ، وكل ما نفعله عن طريق التفكير المستمر ذى الغرض المحدد ، إنما يهدف إلى فهم واحد من موضوعات التفكير هذه ، أو إلى تبين العلاقة القائمة بينها .

وللعلماء طرق عديدة مختلفة للتفكير فى العالم المادى . أما علماء الدين والصوفيون والشعراء فقد انصرفوا بتفكيرهم إلى الله قروناً طويلة . بينما استُخْدمت الفنون والنظم الأخرى ، من الموسيقى إلى علم الاجتماع كوسائل للتفكير وتقرير الحقائق المتعلقة بالبشر .

إلا أنه من الصعب حتى على العلماء أن يحددوا حقل كل نظام بدقة متناهية ، وما زالت هذه الصعوبة أعظم فى دراسات العواطف . فنحن نعلم إن دراستنا لعمل أدبى رائع مثل جحيم دانتى أو هاملت لشكسبير تنقلنا إلى دراسة فى علمى النفس والتاريخ ــ بل الواقع أنها تنقلنا إلى مراحل ومناطق متعددة مختلفة من التاريخ ــ كما تنقلنا إلى مجال الجمال ومناطق كثيرة مختلفة تكمن فيها بعض الحقيقة . ونحن ، فى الجامعات ، قد نجعل مقار الكليات فى أبنية منفصلة ، ونركّز الإدارات فى مكاتب مختلفة ، بيد أنه لا توجد جدران ولا فواصل لا ينفذ منها الصوت فى مملكة التفكير إذ أن الأفكار غير قابلة للتقسيم حتى ولو ضمها غلاف كتاب .

وهذا هو السبب ، أو أحد الأسباب ، التى جعلت دراسات البشر فى حالة دائمة من المد والجزر : تتمدد ثم تنكمش وتغزو إحداها مناطق الأخرى ، مكوِّنةً حقائق جديدة عن أغراضها ووسائلها ، ومبرزة أوصافاً جديدة لمادة موضوعها .. إن البشرية نفسها تتغير باستمرار ، ولذلك فليس هناك من سبيل للوقوف على الحقائق الهامة المتصلة بها إلا باستخدام طريقة مرنة للبحث . ومن ثم يجب علينا آلا ننفر من هذه المرونة

أو نقاومها ، وإنما ينبغى أن نكـيِّف أنفسنا تبعاً لها : لأن الإنسان يختلف عن جميع سكان هذا الكوكب الآخرين تقريباً من حيث إنه كان قابلا للتكيف بشكل هائل ... كما أن شخصيتنا وحياتنا الاجتماعية إن هى إلا تغيير مستمر .

وسنتحدث هنا عن إحدى الدراسات البشرية ، وتعتبر من أصعب هذه الدراسات وأكثرها أهمية . وسنعالج الحقل الذى تهتم به هذه الدراسة متسائلين : هل يمكن أن يتسع هذا الحقل ويعاد تحديده حتى يمكن الحصول على مزيد من المعلومات الأكثر ملاءمة والمعلومات الهامة ، وحتى يستطيع الباحثون فى هذا الحقل أن يكتشفوا طرقاً عديدة للإجابة على المشاكل التى طالما حيرتهم ؟

إن هذه الدراسة هى التاريخ .

والتاريخ بأوسع معانيه هو دراسة الماضى ، وبمعناه المألوف هو دراسة نشاط بنى الإنسان فى الماضى . ولقد أصبحنا فى الأعوام الأخيرة أكثر إدراكا لأهمية التاريخ ومجاله الواسع ، وبدأنا نفطن ، بدون إرادتنا تقريباً ، إلى الجانب الكبير الذى يشغله من حياتنا وإلى تأثيره الحيوى فى مصائرنا . فإن قراراتنا

السياسية وفنوننا وحرفنا وتقدمنا الصناعى والزراعى وحياتنا الخاصة وأدياننا ، كل هؤلاء جميعاً تتكيف تبعاً للتاريخ ولا يمكن فهمها بغير فهم التاريخ .

إننا نعلم جيداً ما للتاريخ من أهمية ، ولكن كيف نعرف التاريخ ؟ أننا نقول إن التاريخ هو دراسة أحداث الماضى . . . وهذا صحيح ، ولكن أية أحداث هى المقصودة بالدراسة ؟ فنى اللحظة العابرة التى نقرأ فيها هذا السؤال وقعت ملايين الملايين من الأحداث فى العالم . وفى طرفة العين ستحدث ملايين أخرى وهكذا دواليك . فهل هذه الأحداث هى المادة الخام لدراسة التاريخ ؟ إن أكثر هذه الأحداث لا تُسجل حتى فى الصحف ، ومن المحقق أن أحدها لن تكون له أية أهمية تذكر وقت حدوثه ولكنه لا يلبث أن يبرز بعد عشر سنوات أو خمسين سنة مبرهناً على أهميته العظمى فى حياة الألوف من بنى الإنسان باعتباره حادثاً تاريخياً حقيقياً .. فكيف يمكن للمؤرخ أن يختار مادته ؟ توجد دائماً حقائق لا عد لها ولا حصر .. إنها كثيفة كثافة رمال البحر ، ومن ثم فإننى حين أرى أحياناً زملائى المشتغلين بالأبحاث التاريخية وهم يخطون ببطء بين تلال الحقائق المسجلة المتنقلة المتزايدة ، يخيل إلى أننى أسمعهم يبكون حينما

يرون هذه الـكميات الضخمة من الرمال .

ما زال أمامنا سؤال سنفكر فيه وهو . ماذا يعالج التاريخ ؟ ماهى الأحداث الهامة فى الماضى ، وفى الحاضر الذى لايلبث أن يتحول إلى ماض بلا انقطاع ؟ ما هى الظاهرة التاريخيـة الحقة التى تستحق التسجيل والتحليل ؟ إنمهمة المؤرخ هى فهم الجنس البشرى عن طريق ماضيه .. فما هى جوانب الماضى التى تساعده على فهم الجنس البشرى فهماً أتم ؟

إن الجزء الأكبر من التاريخ لا يدور حول الأفراد وإنما يدور حول جماعات من الناس ، فهو إما أن يتحدث عن جماعات وطنية (كالرومان والصينيين والأسبانيين) أو جماعات دينية واجتماعية (مثل الـكويكرز وزراع فرجينيا) أوجماعات من أنواع أخرى (مثل الماسون الأحرار والرواد) . وإذاتحدث عن الأفراد فإنما بالقدر الذى يستلزمه ما أبدوه من نشاط يتعلق بالجماعات . مثال ذلك ، إذا أردنا أن نتعـلم تاريخ الشعب الأمريكى فإننا نصادف فى طريقنا رجالا عظماء ، ولـكن معظم دراستنا تتركز فى الأمريكيين كجماعـة وفى علاقاتهم بالجماعات الأخرى . وكما ندرس قصة الفتح المادى للقارة ، كذا وصف التغييرات السياسية والنظام الاجتماعى لمواطنى الولايات المتحـدة ، فإنه يجب علينا

أن ندرس أيضاً قصة انفصال المستعمرات الأمريكية عن الإمبراطورية البريطانية ، كذا اتصال الأمريكيين بالجماعتين الأخريين ، الهنود الحمر والزنوج الإفريقيين ، وتدفق الجماعات الأخرى مثل الإرلنديين والسويديين والصينيين وهلم جرا على جماعة الأمريكيين الموجودة ، والعلاقات بين الولايات المتحدة كوحدة والجماعات الأخرى الموجودة في القارة — كندا وكوبا وكولومبيا والأرجنتين والاتحاد المختلف الأشكال بين الولايات المتحدة وأكثر الجماعات السياسية قوة في العالم — البريطانيون والألمان والروس وشعوب الشرق الأقصى .

هذا ، في اعتقادي ، هو مايجب أن يُعترف به عموماً باعتباره الموضوع الرئيسي لدراسة التاريخ . ولما كان المؤرخ يبحث العلاقات بين جماعات البشر ، فمن واجبنا أن نتساءل أي نوع من علاقات الجماعات هو الذي يهم المؤرخ .

إن الإجابة العامة على هذا السؤال هي أن المؤرخ يدرس العلاقات السياسية أو العلاقات السياسية والاجتماعية التي ينظر اليها أساساً من زاوية القوة . فلقد كانت القوة الأمريكية ثورة ناضجة من حيث أنها أتاحت لسكان المستعمرات أن يحطموا حلقة اتصال القوة بينهم وبين بريطانيا العظمى والاستئثار بالقوة

لحكم أنفسهم .. ولقد كانت العلاقات بين الأمريكيين والهنود والزنوج ، فى أساسها ، علاقات القاهر والمقهور والسيد والمسود. وفى كثير من تاريخ الأمريكيين حقب طويلة يُعبر عنها بألفاظ الكفاح من أجل القوة — بين الأحزاب السياسية المتنافسة ، وبين رأس المال والعمل ، وبين الأعمال والحكومة ، وبين الصناعة والزراعة ، بينما توجد تواريخ لأوربا قلما يبدو أن شيئاً حدث فيها اللهم إلا الصراع من أجل المُلك والحروب والثورات ، وكلها انتقالات للقوة من جماعة لأخرى .

فهل هذا هو التاريخ كله أو أكثره ؟ لو أننا اخترنا فقط الحقائق التى تصور النضال الذى نشب بين جماعات البشر من أجل القوة وحللناها ، فهل نحصل على وصف كاف للماضى ؟ هل نستطيع أن نفهم حالتنا الحاضرة باستعراضها على اعتبار أنها نتيجة النضال الدائم من أجل القوة ؟ هل التاريخ سِجلّ للمعارك والحروب ؟ وهل الأساس فيما وصل اليه الجنس البشرى وأصبح عليه من شدة التعقيد ، هو المنافسة والحقد المشترك ؟

إننا إذ نلقى هذا السؤال لا نلبث أن ندرك أن الإجابة عليه لا يمكن أن تكون « نعم » .

فى خلال نصف القرن الماضى مرت علينا مغامرتان أطلق عليهما اسم : الحربان العالميتان (ولو أن كثيراً من سكان العالم قد يظنون أن إطلاقنا هذا الاسم فيه مبالغة) . لقد كانتا حربين عظيمتين اقترنتا بالتدمير وقُتِل فيهما كثيرون ، ومع ذلك فإن سكان العالم الآن أكثر منهم فى أى وقت مضى : إن عدد هؤلاء السكان يتزايد فى كل دقيقة وكل ثانية . كما أن مستوى الحياة لم ينخفض بسبب هاتين الحربين ، ولكنه آخذ فى الارتفاع لأن الأوبئة والأمراض المعدية لم تعد تنتشر ، فضلا عن أن نسبة موت الأطفال آخذة فى الانخفاض ، كما أن مساحة الرقعة الزراعية آخذة فى التزايد ، والطرقات العادية وكذا طرق النقل تتضاعف بسرعة كبيرة ، والإنتاج العالمى ينمو باطراد ، والمدارس التى تُفتتح أكثر جداً من التى تُغلق ، ونسبة التعلم آخذة فى الارتفاع فى جميع الدول تقريباً ، والكتب تتدفق خارجة من المطابع فى جميع أنحاء العالم . والمخترعات الجديدة تُكتَشف باستمرار ثم تُنتَج وتُوزع .. إن جميع هذه الحقائق لا يمكن أن تُوصَف بأنها نتيجة الحرب أو المنافسات بين الجماعات الوطنية . . . فلا بد إذن من أن هناك بعض جوانب هامة من الماضى لا يمكن أن تشرح بعبارات مثل النضال من

أجل القوة السياسية والاجتماعية . لا بد إذن من أن هناك نوعاً آخر من العلاقة بين الجماعات التى تتكون منها البشرية .

* * *

سيقول لنا بعض المؤرخين أن التفسير الأكثر أهمية اقتصادى أكثر منه سياسى .. سيقولون أن التاريخ سِجِل يبين كيف انتزعت إحدى الطبقات الثروة من طبقة أخرى ، وكيف أن التعديلات التى أُدخلت على طرق الإنتاج والتوزيع غيرت الهيكل الاجتماعى للجماعات الكبيرة والعالم جميعاً ، وكيف تبادلت الشعوب المختلفة السلع والخدمات ، وبذلك أثرت واستغلت إحداها الأخرى .. من المحقق أن هذا القول صحيح إلى درجة هامة ، فإن سلسلة الأحداث العظمى — كسقوط الإمبراطورية الرومانية وانحطاط أوربا الغربية — لا يمكن فهمها فهماً كاملا ما لم نُحَلِّل جوانبها الاقتصادية .

ومع ذلك ، فإننا نعلم أن التفسير الاقتصادى للتاريخ غير كاف أيضاً .. فإن تطبيق الوسائل العلمية غير المناسبة على النشاط البشرى الذى ينطوى على العاطفة والإرادة ، جعل الاقتصاديين يقدمون لنا صورة مزيفة جزئياً للعلاقات بين الجماعات . ومن ثم فإننا نستطيع ، بأعظم قدر من الانحراف فقط ، أن نفسر

حدثاً هاماً مثل الحروب الصليبية أو تاريخ حياة نابليون و نفوذه عن طريق الاعتبارات الاقتصادية .

* * *

كلا ، لا بد أن هناك وسيلة أخرى لتسجيل التاريخ .. لا بد من أن هناك تفسيراً آخر — لا يهدف إلى أن يحل محل التاريخ السياسي والاجتماعي ، أو التاريخ الاقتصادي ، وإنما يكملهما ، ويملأهما ويجعلهما حقيقيين . . ومن المحتمل أنه يجب ألا يكون تفسيراً علمياً يعالج الناس كما لو كانوا أدوات أو قوى جامدة ، وإنما يكون تفسيراً إنسانياً يصف بإسهاب كيف يتصرف الناس ككائنات من مادة وروح .

وأرى أنه يحسن بنا أن نفكر فى الشعوب والقبائل والجماعات الاجتماعية بل والأجناس ، ليس فقط باعتبارها متنافسات أو متعاونات فى الميدان الاقتصادى ، ولكن أيضاً باعتبارها تلاميذ ومدرسين .

وفى رأيي أن العلاقة التربوية بأوسع معانيها تعتبر من العلاقات الرئيسية بين الجماعات البشرية . وأرى أنه يمكن أيضاً كتابة تاريخ العالم كتاريخ لانتقال الأفكار من إحدى الجماعات البشرية إلى جماعة أخرى .. فإذا رؤى إعادة كتابة التاريخ ، فيجب

أن يُكتَب ليلقى الضوء على كثير من مناطق الماضي التي يُساء فهمها الآن كما – ولو أن ذلك ليس من واجب المؤرخ – يجب أن يُزوِّد الكثيرين بما يحتاجون إليه من الثقة بالعقل البشرى ومستقبل البشر .

والآن ، دعنا نتأمل التاريخ من وجهة النظر هذه ، لنرى إن كان ذلك سيساعدنا على فهم المزيد من مصائر الإنسانية .

٢

السياسة والاجتماع

توجد فى التاريخ الحديث نسبياً سلسلة واحدة من الأحداث البارزة التى يحسن أن تفهم على أنها تربوية أكثر منها سياسية أو اقتصادية ، فإن شعباً تعداده ٣٠ مليوناً تعمد أن يدخل المدارس ، ولم يلبث أن تعلم فى غضون سنوات قليلة كيف يمارس عدداً لا يحصى من الفنون ، ويحصل على عدد لا يحصى أيضاً من الأفكار التى لم يعالجها من قبل ... تلك هى اليابان .

ففى عام ١٨٦٨ أقسم أمبراطور اليابان أمام الشعب — مرسوم القسم — بأن يغيِّر الشعب ويصلحه ، وكان من الواضح أن هذا إعلان عن سياسة لحزب هام بين الوزراء ، فقد كانت العبارة الأخيرة فى هذا القسم كما يلى :

« سنبحث عن المعرفة فى جميع أنحاء العالم » .

ومنذ ذلك الحين وسياسة اليابانيين تنحصر فى تعلم كل ما يمكن تعلمه من الشعوب الأخرى ، ولهذا الأمر مغزاه الكبير نظراً لأن اليابانيين شعب يعتز بنفسه ويكره أن يضع نفسه فى مركز مَنْ يعتمد على غيره كما يفعل التلميذ حيال الأستاذ ، وكذلك ظل هذا الشعب لا يثق بالأجانب بل ويكرههم قروناً عديدة . ولكنهم قوم أقوياء الإرادة ، ما أن حزموا أمرهم على هذه السياسة حتى نفذوها . أما الذين قرروا هذه السياسة فكانوا قليلى العدد ، إلا أنهم كانوا فعلا من صُنَّاع التاريخ .

وكان أحد هؤلاء الأشخاص « هيرويومى إتيو » ... فعندما كان شاباً صغيراً استطاع أن يقنع سيده الإقطاعى « كوشو » بأن يهجر السهام والأقواس التقليدية ويستخدم البنادق والمدافع ، وبعد ذلك بفترة قصيرة ، وبتشجيع سيده ، إرتكب وأربعة آخرين جريمة يعاقب القانون مرتكبها بالإعدام ، ولكنهم رُحِّلوا خارج البلاد ، فقضوا سنة يدرسون فى لندن ، وعند عودتهم أصبحوا زعماء الحزب التقدمى فى اليابان(*) . وفى عام

(*) لقد عثرتُ فى سجلات زملائى بجامعة أكسفورد على موجز لتاريخ حياة مماثل لنبيل يابانى اختزل ستة قرون فى ستين عاماً ، وفى هذا السجل وصف لأول عضو يابانى فى الكلية فى عام ١٨٧٤ : =

١٨٨٢ عُهِد إلى « إيتو » بإعداد دستور لبلاده التي لم يكن لها حتى ذلك الحين دستور ، وكانت تعيش فيما يشبه فوضى العصور الوسطى التي تمزقها الحروب الأهلية وتخمدها الديكتاتورية ... ولقد اصطحب « إيتو » معه عدداً كبيراً من الموظفين ، وطاف معهم بالدول الأوربيـة ، وكان يقابل الشخصيات البارزة ويدرس مختلف نظم الحكومات الدستورية ... وبعد سبعة أعوام ، أي في سنة ١٨٨٩ ، وبعد كثير من المناقشات والقوانين التمهيدية ، أصدر الإمبراطور دستور اليابان الجديد ، وكان مأخوذاً من دستور باڤاريا . ولقد استمع عشرات من النبلاء والموظفين

= هاشيسوكا : أول مركيز موشي آ كي ، ولد في أول أغسطس عام ١٨٦٤ ، نجل الأمير نارى هيروهاسيوكا آخر سيد إقطاعي لطوكوشيما كلان والدايمو السادس عشر لليابان ، وقد أصبح سيد اواچي في عام ١٨٦٠ ثم سيد أوا في عام ١٨٦٨ وحاكم طوكوشيما فيما بين عامي ١٨٦٩/١٨٧١ عند ما أعاد الدايموس اقطاعاتهم إلى الأمبراطور وذهبوا لتلقي العلم في انجلترا فيما بين عامي ١٨٧٢/١٨٧٩ (وكانت سنه تتراوح بين ٢٨ و ٣٠ سـنة) وهو في باليول . ثم عين مديراً للجمارك في عام ١٨٨٠ ووزيراً في فرنسا فيما بين عامي ١٨٨٢/١٨٨٧ ومنح لقب مركيز في عام١٨٨٧ وسفيراً في اسبانيا عام١٨٨٥ ثم وزيراً للعدل في ١٨٨٧ ثم حاكما لطوكيو في عامي ١٨٩٠/١٨٩١ ورئيساً لمجلس اللوردات في عام ١٨٩١ ثم وزيراً للتعليم في عام ١٨٩٦ . ومات في عام ١٩١٨ .

لخطاب الإمبراطور ، وكانوا جميعاً يرتدون الزى الأوربى الرسمى — فيما عدا واحد فقط هو الأمير « شيمادزو أوف ساتسوما » ، الذى صفف شعره على النمط القديم ، وارتدى زى القرون الوسطى القديم الذى ظل جميع السادة اليابانيين يرتدونه قروناً طويلة ، ولكنهم ما لبثوا أن تخلوا عنه فى مدى سنوات قليلة ، إذ أن التاريخ يتحرك بسرعة أكثر عن طريق التعليم منه عن طريق الحرب .

وفى خلال هذه الحقبة من الزمان حدثت تغييرات ثورية أخرى مماثلة فى اليابان ، وكانت جميعها نتيجة الدراسة خارج البلاد ، فأُلْغِى نظام الإقطاع القديم ، ونسى الناس الرتب والألقاب القديمة ، وأُنشىء نظام جديد لوراثة الأمراء والمراكيز والكونتات والفيكونتات والبارونات على غرار النظام الأوربى ، وفى عام ١٨٧١ أُلْغى استعمال التقويم الصينى المعقد غير الدقيق ، وأُعلن رسمياً استخدام التقويم الغربى الرسمى ، وحتى ذلك الحين كانت النقود اليابانية شبيهة بنقود أوربا فى القرون الوسطى : كانت أربعة أنواع من العملة الذهبية فى عام ١٨٦٨ ، ونوعين من العملة الفضية ، كما كانت هناك أنواع أخرى من العملة الورقية التى أصدرت فى عام ١٦٠٠ ، ولقد وُجِدت العملة اليابانية بعد

ذلك فى جميع أنحاء اليابان . كما سمح لأول رجال الأعمال الذين رُخِّص لهم بدخول اليابان باستنزاف جميع الذهب الموجود فى البلاد تقريباً . وفى عام ١٨٧٢ أنشىء بنك اليابان ، وبعد سنوات قليلة توطد مركز العملة اليابانية . وقد أنشىء بنك اليابان على غرار بنك بلجيكا .

وبنفس الطريقة أنشأ اليابانيون بحريتهم وجيشهم ، فأوفدوا أولا بعثة إلى أوربا لدراسة تنظيم وتدريب قوات الدفاع فى ذلك الحين . فلما عاد أعضاء هذه البعثة إلى بلادهم أقاموا المنشئات الأرضية : مراسى السفن الرئيسية والترسانات ومدارس التدريب . . . وهلم جرا . وبعدئذ استخدمت اليابان مدربين أجانب : بعثة بحرية إنجليزية للأسطول البحرى ، وبعثة عسكرية روسية (برئاسة الجنرال ميكل) للجيش . وبعد سنوات قليلة فقط أصبحت البحرية على درجة من الكفاية أتاحت لها تحطيم الأسطول الصينى ، كما هزم الجيش المكون من الفلاحين والعمال قوة رهيبة من رجال القبائل المتمردة بعد حرب أهلية طاحنة . أما تاريخ الجيش والبحرية اليابانيين بعد هذا فمعروف لنا .

إن اليابانيين لم يسافروا إلى خارج بلادهم لمجرد التعلم . فقد جلبوا — طبقاً لمرسوم القسم — ما لا يقل عن ٥٠٠٠ مدرس

ومدرسة من الخارج من بينهم ١٢٠٠ من الأمريكيين (كانوا يطلقون عليهم أولا اسم يانوى « أى الأجنبي المستأجَر » وفيما بعد ، أى عند ما استحقوا التكريم أطلقوا عليهم أو ياتوى « أى الأجانب المستأجَرون الأجلاء) . ويذكر أحدهم : مستر « و. ا. جريفيس » كيف كان من الغريب على هؤلاء المدرسين والمدرسات الأجانب أن يُعلّموا شباباً كان يتلهف على المعرفة ويتقبل كل ما يمكن أن يلقى عليه من معلومات بلهفة لا حد لها . ثم يمضون — أى المدرسين والأجانب — بعد ذلك عائدين إلى منازلهم مخترقين شوارع ما زالت تحمل طابع القرون الوسطى الشبيهة بالمقابر ، ولقد ذكر « جريفيس » أن ممن يستحقون التكريم لما أدوه من خدمات رائعة فى اليابان « باميلى » إخصائى المناجم و « برنتون » إخصائى هندسة الموانى والمنائر و « كبنكنج » إخصائى فى المترولوجيا وغيرهم كثير .

بالطبع من سخف الرأى أن نقول إن كل هذا التعليم انتشر فى اليابان بسرعة البرق وبغير إعداد . ففى أوائل عام ١٧٤١ أمر «شوجان يوشيميون» اثنين من الطلاب بأن يتعلموا اللغة الهولندية (فقد كان الهولنديون هم الشعب الأوربى الوحيد الذى يُسْمَح له بزيارة اليابان فى ذلك الحين) ، وفى عام ١٧٧١ حصل طبيب

يابانى اسمه « سوجينا » على كتيب ألمانى — هولندى فى التشريح ، وراح يختبر ما فيه من حقائق بمراقبة تشريح جثة أحد الموتى ، ثم ترجم هذا الكتيب ونشره . وبدأت دراسة الرسم والجغرافيا وعلم الفلك الأوربى فى نفس الوقت تقريباً ، ولكن هذا كله لم يكن إلا تمهيداً نسبياً للثورة التعليمية الكبرى التى حدثت فى عام ١٨٦٠ وما تلاه .

إن القصة كلها تدعو لأشد الدهشة ، بل إنه ليدهشنا أن نعرف أن الثورة التعليمية لم تحدث مرة واحدة فى تاريخ اليابان وإنما حدثت مرتين . . . فقبل ذلك بأعوام طويلة ، وفى العصور المظلمة ، كان اليابانيون قبيلة منغولية اندفعت (مثل هنود أمريكا) شرقاً بحثاً عن وطن ، فوجدوه فى الجزر اليابانية التى غزوها وزرعوها ، فلما ازداد عددهم وأمنهم قرروا أن يتحضروا ، فقد كانوا متاخمين للامبراطورية الصينية ذات الحضارة العظيمة ، وفى عام ٦٤٥ اقتبسوا كثيراً من هذه الحضارة بغير أن يصبحو أسرى لها . ومن الصينيين تعلم اليابانيون ـ وأدخلوا فى مجتمعهم ـ الإدارة المركزية ، والبوذية كدين أسمى ، والكتابة المؤسسة على الحروف الصينية ، ومبادىء فنونهم الجميلة التى لم تكن تعدو الفن الصينى الجميل مبسطاً ، وكثيراً من مظاهر الحضارة الأخرى .

ثم حدثت هذه الثورة مرة ثالثة . فبعد أن هزمت الولايات المتحدة اليابان عسكرياً وقلت قوتها الاقتصادية ، احتلت البلاد عدداً من السنوات . فماذا كان أهم عمل اتُّخِذ وكان له أعظم التأثير في المستقبل ؟ أهو الغزو العسكرى أم السيادة الاقتصادية ؟ أم هل سيثبت أن أهم عمل اتُّخِذ هو التعليم الذى تم خلال هذه السنوات ؟

هذا إذن هو أحد الأمثلة على انتقال الأفكار من جماعة لأخرى ، والتأثيرات التاريخية الهائلة التى يمكن أن تتوفر لهذه الحركة . . بالطبع إن النظر إلى التاريخ بهذه الطريقة من شأنه أن يثير متاعب خاصة تتعلق به . مثال ذلك أننا نريد أن نعلم كيف تم انتقال الأفكار إلى عقول اليابانيين ، ولماذا بُدِىء بهذا الانتقال، وماهى الدوافع التى شجعت رجالا مثل «إتيو» و«سوجيتا» وغيرهم من الزعماء على المساهمة فى الحركة ، وماذا كانت علاقتهم ببقية سكان بلادهم ؟ كذلك نريد أن نعرف أسباب الاختلاف ، مثال ذلك لماذا اختلفت طريقة التعليم فى اليابان عنها فى جارتها الصين ؟ هذا ما يجب أن نفكر فيه فيما سيجىء من حديث .

* * *

هناك أمثلة عديدة لحركة انتقال الأفكار هذه باعتبارها قوة

تاريخية هامة . وتعتبر قصة تركيا مثلا من هذه الأمثلة .

عندما دخل الأتراك إلى التاريخ الحديث فى القرون الوسطى كانوا جماعة صغيرة من الرُّحَّل يتحركون غرباً من قلب آسيا . وكانوا ممتلئين قوة ونشاطاً ، وهاجموا الإمبراطورية الرومانية الشرقية بعناد سنوات طويلة . واستطاعوا أن يستولوا عليها فى النهاية . وكاليابانيين ظل الأتراك شعباً من شعوب القرون الوسطى إلى عهد قريب ، بل إن بعض صفات القرون الوسطى ما زالت سائدة بينهم حتى الآن . ولكن ما إن زالت الإمبراطورية العثمانية فى عام ١٩١٨ ، حتى قرر الأتراك — أو بعبارة أدق جماعة الأتراك التى كانت فى الحكم — أن تتعلم من الشعوب الأوربية ، وأن تحول تركيا إلى شعب عصرى غربى . وفى غضون عشر سنوات قصيرة ، أى فيما بين عامى ١٩٢٥ و ١٩٣٤ أُدخِلت الحروف الرومانية فى تركيا (لم يطبع كتاب باللغة العربية بعد عام ١٩٢٨) وأُنشِئت الجامعات والمدارس فى المقاطعات ووُسِّع الموجود منها كما استخدِم نظام القياس بالمتر وألغى نظام تعدد الزوجات ، ومُنِحت النساء حق التصويت ، ووُضِع قانون مدنى جديد على غرار القانون السويسرى ، كما أصبحت اللغة الانجليزية (لا العربية أو الفارسية أو الفرنسية)

هى اللغة الثانية ، وأُلْغِيت الألقاب كلقب باشا ، كما أُلْغِى لبس الطربوش وحلت القبعة محله .

ويمكن قياس النتائج الهائلة لهذين المشروعين فى اليابان وتركيا بمقارنة هذين الشعبين بغيرهما من الجماعات القوية فى الشرقين الأوسط والأقصى ... فلنفرض أن جزيرة جاوه المكتظة بالسكان أو بورما الغنية عَلَّمت شعوبها بالطريقة نفسها التى علم اليابانيون بها أنفسهم ، أو لنفرض أن ملايين الشرقيين قرروا أن يتعلموا من الغرب بنفس الطريقة التى اتبعها الأتراك ، فهل هناك من يشك فى أن تاريخ العالم كان سيختلف اختلافاً أساسياً عما هو عليه الآن ، وبخاصة فى الثلاثين السنة الأخيرة وفى السبعين عاماً القادمة ؟

وثمة حالة تاريخية مماثلة ، ولكنها أكثر أهمية ، أحدثها التعليم فى مرحلة تاريخية مبكرة ، وتلك هى الحركة الثقافية التى بدأت فى روما القديمة حوالى عام ٢٥٠ قبل الميلاد .

فالرومان — كالأتراك واليابانيين ، ظهروا فى التاريخ لأول مرة كقوم بسطاء شجعان محافظين غير مثقفين لا يُرجى منهم أى نفع .. كانوا فلاحين تجمعوا حول عدد قليل من المدن فى سهل خصب ، واختلطوا (إذا صحت الأساطير) بالخارجين

على القانون والرجال الذين لا خَلاق لهم ، وسيطر عليهم «الإتروسكان» اللامعون بعض الوقت ، وهم جنس أعلى حضارة . وكان من المتوقع أن يظل الرومان مربوطين إلى حقولهم لعدة أجيال ، والتاريخ يمر من فوق رؤوسهم مثلما تتغير الفصول ، ولكن حافزاً غامضاً غير قابل للتحليل دفعهم إلى الخروج من هذا النطاق الضيق ، فأخذوا ينمون وينمون ، وتعلموا ، وكيفوا أنفسهم ، حتى أصبحوا غزاة العالم المتمدين والمدافعين عنه . ولقد كانت للرومانيين ميزات عديدة أهّلتهم لأن يكونوا حكاماً . كانوا يؤمنون بالقانون لا بالإرادة الاستبدادية — وكانوا يؤمنون بتهذيب الذات أكثر من اهتمامهم بالتعبير عن الذات . كانوا علماء تكنولوجيا ومنشئ طرق ومهندسين ومصممي مدن ، ولقد كان الرومان هم الذين حولوا — بنظم ريهم الهائلة — منطقة غرب البحر الأبيض المتوسط من أحراش وصحارى إلى بلاد كلها حدائق وكروم وحقول يانعة ، واحتفظوا بها على هذه الحالة زهاء خمسمائة عام ، فلو أنهم لم يفعلوا أكثر من إلغاء الوحشية ، وتنظيم الإنتاج والتجارة ، وتوطيد نظام الحكم بالقانون فى العالم كله ، لكان فى ذلك الكفاية لكى تظل ذكراهم حية باعتبارهم صانعى مدنية مادية .

ومع ذلك فقد عرف الرومان أن الحضارة أكثر بكثير من الثراء المادى ، وقرروا أن يُكسبوا ثقافتهم معنىً ، وأن يمنحوا أنفسهم شيئاً أكثر من مجرد الأكل والشرب واللعب . ففى القرن الثانى غزوا اليونان وفى الحال (كما قال أحد شعراء الرومان) أصبحوا أسرى الحضارة الإغريقية .

ولِنشرحَ هذا القول بكلمات نفهمها ، نقولُ أن الرومان أصبحوا تلاميذ الإغريق المطيعين ، فجاءوا ، مثلما فعل اليابانيون فى القرن التاسع عشر ، بالمعلمين من الخارج : إخصائيون إغريق ليحاضروهم ، وعلماء إغريق لتحسين معلوماتهم وتدريبهم على العلوم ، وفلاسفة إغريق ليعيشوا معهم . ولقد حرص كثير من أعاظم الرومان على أن يُسكِنوا المفكرين الإغريق فى منازلهم بصفة دائمة ليحتفظوا بمستواهم الذهنى المرتفع عن طريق مناقشة الموضوعات السامية الصعبة ... مثال ذلك « كاتو » خصم قيصر الجمهورى والرجل الذى إذا فكرنا فيه فعلى اعتبار أنه رومانى محافظ قوى الشكيمة ، هذا الرجل كان فى الحقيقة مفكراً تعلم على الفيلسوف « أثنودورس كورداليو » الذى كان يعيش فى منزله . ولقد كان الفنانون الإغريق يزخرفون منازل الرومان . أما أدبهم فكان ينشأ طبقاً للنماذج الإغريقية فيما عدا أساليب أدبية

قليلة جداً مثل الهجاء ، حتى لقد فاخر مؤلف رومانى بأنه استطاع أن يتساوى ، بلغته ، مع أحد أساتذة الإغريق .

ولم تكن نتيجة ذلك ، كما قد نتوقع ، خلق ثقافة لا تزيد عن أن تكون صورة طبق الأصل من الثقافة الإغريقية . فقد كان الرومان يختلفون إختلافاً كبيراً عن الاغريق فى تقاليدهم ونظامهم الاجتماعى وثقافتهم .. كانوا يعلمون أنهم أغبياء نسبياً ، ومن ثم فقد تعلموا من الإغريق ، وكانوا يعلمون أنهم معدوموا الحساسية بالنسبة للفن ، ولذلك جاءوا بالفنانين الإغريق ليدخلوا الجمال فى حياتهم ، ولكنهم لم يخجلوا من صفاتهم الخاصة — بيد أن إحساسهم الأدبى ووطنيتهم وتقديرهم للمسئولية كانت من الصفات التى أعوزت الإغريق . . وكانوا يعلمون أن لغتهم أقل مرونة وأكثر ضيقاً من مجال اللغة الإغريقية ، ومع ذلك فإنهم لم يخجلوا من قوتها ونشاطها وموسيقاها الرزينة . ومن ثم فقد قرضوا الشعر وكتبوا التمثيليات والخطب والديالوجات الفلسفية وسجلوا التاريخ بشكل لم يُتَح لأحد من الإغريق ، وإن كان من الواضح أنهم فعلوا ذلك متخذين من النماذج الإغريقية هادياً ومرشداً .

واقع الأمر أن الرومان ساهموا فى حضارة ذات جانبين

متناسقين يُكمِّل أحدهما الآخر ، فقد أنتج الإغريق فلاسفة ، وأنتج الرومان ساسة تعلموا من الإغريق كيف يكونون فلاسفة أيضاً ، ومن ثم أصبحوا من عباقرة الساسة — ولقد أنشأ الإغريق الفصاحة ، فأضاف الرومان إليها العنصر الأخلاقى والإجتماعى . وكتب الإغريق الأناشيد الشيقة وملأوها بالعاطفة الرقيقة ، فلما جاء الرومان حذوا حذوهم فى الشكل ، ولكنهم زادوا الأناشيد عمق إحساس ، وأضافوا إليها تفكيراً أعمق . . ولقد كان فى الإمكان التكلم عن الثقافة الإغريقية مثل نهضة الرومان ، ولكن من الأفضل أن نتكلم عن الحضارة اليونانية الرومانية بعد عام ٢٥٠ قبل الميلاد ، تلك الحضارة التى ينتسب إليها الفريقان أحدهما كمعلم ، والثانى كتلميذ ، ولكنهما لم يلبثا أن أصبحا فى النهاية خصمين صديقين !

الامبراطورية الرومانية ! .. إن وقع هذا الإسم على الإذن يجعل القارىء يظن أننا نكتب التاريخ بمصطلحات سياسية وحربية فقط ، أو أنه لا بأس من أن نضيف إليها بعض التفسيرات الاقتصادية . بيد أن هذا الوصف لا يكفى ، وإنما الأجدى أن ننظر إلى الموقف كله على اعتبار أنه عملية تعليمية . بالطبع فى الإمكان أن نرسم صورة لتاريخ الرومان باعتباره سلسلة من

الملاحم الدموية والتمرد الفاشل الذى انقلبت فيه نسور الجيوش الجرارة إلى وحوش ضارية تحوم فوق جثث الشهداء الدامية ورجال القبائل التعساء ، بل إنه لمن الممكن أن يُوصَف تاريخ الرومان بأنه كان مجالا هائلا للاستغلال الاقتصادى ، والبذخ الذى لا حدود له والذى أدى إلى فناء مجتمع برمته . . بيد أن تاريخ الرومان كان فيه شىء آخر ، وهذا الشىء هو ذلك الجانب ذو الأهمية الدائمة ، ونعنى به إرادة الرومان وقدرتهم على التعليم ، فإلى أهميتهم الثقافية يرجع الفضل فى أننا مازلنا ندرس روائع الأدب الإغريقى والرومانى ، وإلى قوتهم فى التعليم يرجع الفضل فى إعجابنا بالرومان وما نحن إلا تلاميذهم .

فقد كان الرومان هم الذين علموا البرابرة وحضَّروهم ، وهؤلاء البرابرة هم أجداد معظم الشعوب الأوربية : الأسبانيون والمغول والبريطانيون وشعوب البلقان والرومانيون وشعوب شمال إفريقيا . . فقد وجدتهم روما قبائل مبعثرة تعيش فى العصر الحديدى الأول ، أميين فقراء . . فعلمتهم فى حقب قليلة ، الزراعة والتجارة والفن المعمارى والصناعة ، كما علمتهم فى حقب أخرى ، القانون والفلسفة والأدب والدين . ومن الجائز أن هذه الشعوب كانت لا تستطيع أن تهضم الحضارة الإغريقية بطريقة مباشرة

حتى ولو أتيحت لها الفرصة ، نظراً لكثافة هذه الحضارة وصعوبتها وتقدمها . . ولكن هذه المدنية مرت بالعقلية الرومانية الأكثر خشونة فأصبحت أكثر قبولا وقابلية للفهم بالنسبة للبرابرة حديثى العهد بالمدنية . كما أضافت روما إلى هذه الحضارة حضارتها ، وخصوصاً فيما يتعلق بالقانون والدين .

ذلك لأنه من المحقق أن أعظم درس تلقاه أجدادنا الأوائل عن طريق روما هو المسيحية . وككل شيء آخر فى هذه الحضارة ، بدأت المسيحية فى الشرق الأوسط ، وكان المسيحيون يتكلمون اللغة اليونانية فى بادىء الأمر ، ثم ترجمت إلى اللاتينية واكتسبت الطابع الرومانى ، وفى الإمكان تتبع العنصرين اليونانى والرومانى فى المسيحية مثلما يمكن تتبع العنصر العبرى الأصلى فيها ، ولكنى أعترف بأن الشطر الأكبر من مسيحيتنا يذكرنى بروما . وإنى كلما رأيت راهباً أسبانياً فى صورة من رسم « زورباران » ، أو درست وجه واحد من متدينى نيوانجلند يخيل إلى أننى أتطلع إلى واحد من الرومانيين الذين نراهم فى التماثيل أو الصور المنحوتة فوق المذابح وهم يقدمون الغذاء بخشوع وعلى وجوههم سمات الجد وقد غطيت رؤوسهم تبجيلا للمناسبة .

كان هؤلاء هم أجدادنا القدماء .

* * *

تكلمنا عن ثلاث حالات صنع العلم فيها التاريخ : اليابان وتركيا وحضارة اليونان وروما التى تدفقت فى عقول أجدادنا القدامى ، والتى ما زلنا نرتشف من مناهلها . . ومن ثم فإنه من المحقق أنه ندر أن يكون فى الإمكان معرفة أى شعب أو أية جماعة عن طريق دراسة تاريخها فقط . وإنما يجب علينا أن نتساءل دائماً « من كانوا أقوى معلمى هذا الشعب وما الذى تعلمه منهم ؟ » خذ مثلا آخر . . ونقصد الأسبانيين الأباة المتطرفين فى الوطنية . . كيف نستطيع أن نفهم أخلاقهم بغير أن نفكر فى أولئك الذين ساهموا فى صياغتها ؟ إنك لا تكاد تضع قدمك فى إحدى المدن الأسبانية الكبرى حتى ترى وتسمع شيئين قلما يوجدان فى أى مكان آخر بأوربا ، أحدهما حلقة مصارعة الثيران التى ورثها الأسبانيون عن المدرجات الرومانية بما فيها من قتل منظم ، وأما الشىء الآخر فهو الغناء الذى يبدو أنه مستمد من الغناء العربى ، وإذا عدنا إلى التاريخ الحديث نسبياً فإننا سنعرف المزيد عن الأسبانيين حينما ننظر إليهم كتلاميذ .

فى عام ٧١١ ميلادية عبر العرب مضيق جبل طارق ، وبعد سبعة أعوام غزوا شبه جزيرة أسبانيا كلها تقريباً ، وشرعوا فى عبور جبال البرانس ، وفيما عدا منطقة ضيقة للغاية ، فإن جميع

سكان أسبانيا استسلموا للفاتحين ، ولقد كان الأسبان رومانيين لهم ثقافة الرومان ، ولكن ثقافتهم لم تلبث أن اضمحلت بعد سقوط الامبراطورية الغربية وغزو البرابرة لأسبانيا . وكان العرب أكثر حضارة فى ذلك الوقت ، ومن المحقق أن حضارتهم كانت أكثر تماسكا ، وكان العرب يحبون الموسيقى والشعر والملابس الجميلة والعمارات الفاخرة والحدائق والأثاث الفخم والفلسفة ، وفى غضون أحقاب قليلة ، اعتنق كثير من الأسبان الإسلام ، حتى أولئك الذين استمسكوا بالمسيحية كانوا يرتدون الثياب العربية فى بعض الأحايين ، ويعجبون بالجمال العربى وطريقة العرب فى الحياة ، كما حاولوا أن يكتبوا الخط العربى الجميل .

ولهذه الحالة نتائج كبيرة معقدة يصعب تحليلها الآن ، ولكن من أغرب هذه النتائج أن العرب ساعدوا على خلق الشعر الغنائى الأوربى الحديث . فأبان حكم العرب لأسبانيا كانت خمس لغات على الأقل تستخدم فى هذه البلاد ، أما اللهجات فكانت طبعاً أكثر من ذلك . أما إلمامنا باللغة الأسبانية فغامض مبهم غير قابل للتعلم كما أنه لا يصلح لإنتاج أدب . ومع ذلك فقد كانت اللغة الأسبانية — كما هى الآن — قوية ، فكان الناس ينشدون الأغانى الأسبانية ، كما كانت تصلح للرقص على نغماتها والحديث

بها . وندر أن كتب الشعر والأغانى باللغة الأسبانية ، أو قلما كان الناس يعتبرونها لغة تستحق الكتابة بها لصعوبة استخدامها فى صياغة الأدب .

وحوالى عام ٩٠٠ ميلادية اخترع الشاعر العربى « مقدم » نوعاً جديداً من الشعر الغنائى اسمه الموشحات ، كسر أشكال القافية الشعرية العربية وقضى على جمال أسلوبها » ، وذلك بإدخال نثر بلغة عربية عامية يُنطق باللغة الأسبانية. والحقيقة أنه أخذ أغانى الجماعة وصاغها على شكل أدب ، ولقد عُثِر على بعض قصائد شعرية عبرية مماثلة يرجع تاريخها إلى عام ١١٠٠ أو ما يقرب من ذلك . وقد تبين أن هذه القصائد تحتوى على نثر أسبانى بدائى .

وإلى جانب ذلك يقال أن أول شعر غنائى لجنوب أوربا ، بدأ فجأة حوالى عام ١١٠٠ فى بروفانس بمجموعة قصيرة من الشعر قرضها كونت أوف بواتيه جويلوم ، وأن قاعدته تستند فعلا إلى الشعر العربى من ناحية الأسلوب والمادة ، ولذلك كثر فيه ذكر صنوف عذاب الحب التى تكثر فى الشعر العربى (كالنواح والسهد وقسوة المحب والنار الداخلية) . والفكرة فى ذلك أن الحبيب عبد المحبوبة . ولقد ذكر أن الحب والفلسفة ، عادا إلى العالم الغربى عن طريق العرب . ومن الأسفار المشهورة فى هذا

الموضوع كتاب ابن حزم « الطوق » الذى صدر فى عام ١٠٢٢ وورد فيه ذكر أفلاطون ، كما أنه أكثر من الإشارة إلى الحب الروحى السامى .

* * *

إن أية دراسة تفصيلية لإلتقاء الثقافات وبروز الأفكار يجب أن تدخل فى حسابها زاوية الميل . يجب أن نتساءل ونحن بصدد هذه الدراسة : هل هاتان الثقافتان الملتقيتان تشتركان فى شىء كثير أم فى شىء قليل ، وإذا كانتا تشتركان فى شىء قليل فلاريب فى أن ذلك يشير إلى أن خلافاً شديداً وتعاسة سينجمان عن هذا اللقاء . ولا نزاع فى أن انفراج زاوية الميل هذه هو سبب تعاسة الزنوج فى مجتمع يسيطر عليه الجنس الأبيض ، بيد أن هذا الموضوع يمكن أن يدرس بقرينة أقل تطرفاً مثل الاتحاد بين الأسبان والهنود .. ففى شمال أمريكا لم يمتزج البيض بالهنود ، فقد كان الهنود يتناقصون فى بعض الأحايين ، بينما كانوا يعزلون فى أحايين أخرى ، ولكنهم قلما اختلطوا بالبيض لإنتاج شىء جديد منسجم ، إلا أن الامتزاج حدث فى أمريكا الأسبانية ولو أنه لم يتم حتى الآن تماماً .

تأمل ... إن للأسبان خصائص عديدة فى ثقافتهم ، وهذه

الخصائص توجد (مصادفة) فى ثقافة الهنود ، كما أن للأسبان خصائص أخرى عدلت الثقافة الهندية بغير أن تقضى عليها تماماً مثال ذلك : الشجاعة ، واحتقار الموت ، والافتتان بالموت ، والكتمان الذى لا يلبث أن ينقلب إلى شقشقة لسان وتفاخر ، وعمق الإحساس الدينى ، والميل للقسوة الذى ما لبثت المسيحية أن هذبته فى الأسبان .

ولكن الشعبين يختلفان اختلافاً كبيراً فيما عدا ذلك . إلا أنه كان هناك بعض الاتفاق الروحى بينهما ، وكانت النتيجة أنه كما تغلغلت روما فى أسبانيا وغيّرتها إلى شىء جديد ، تغلغلت أسبانيا أيضاً فى أمريكا الهندية وغيّرتها إلى شىء جديد ، ومن الجائز أن التحويل لم يتم تماماً حتى الآن ، ولكنه مستمر على كل حال . ومما هو جدير بالملاحظة أن أحسن قصيدتين شعريتين تعالجان شئون الهنود كُتِبا بالأسبانية (قصيدة « أروكانا » وكتبها أرسيلا ، وقصيدة « مارتن فييرو » وكتبها هرنانديه) ، فضلا عن موسيقى كارلوس شافيز المكسيكى التى تدل على الفهم العميق للثقافتين .

* * *

لنستعرض الآن ما قلناه لنرى إلى أى مدى وصلنا فى هذا الحديث .

لقد بدأنا بالقول بأن التاريخ كان دراسة للتعبير عن طريق تحليل الماضى ، ثم تساءلنا ، ما هى أكثر جوانب الماضى التى تستحق الدراسة ، واتفقنا على أن التاريخ كان يعالج أساساً العلاقات القائمة بين جماعات من الناس .

ثم مضينا فتساءلنا كيف يجب أن توصف هذه العلاقات ، فإن أكثر كتب التاريخ تعالج هذه العلاقات باصطلاحات القوة ، ومع ذلك فإن المنافسة لا تفسر كلاً أو كثيراً من مصائر الإنسانية ؛ وبعضها الآخر يعالجها كعلاقات اقتصادية فقط ، ولكن ذلك ليس عرضاً كافياً للماضى .

ثم قلنا إن الثقافة كانت من أهم العلاقات بين الجماعات ، وإن كثيراً من التاريخ يمكن أن يُستَعرض فى اصطلاحات من تحرك الأفكار من جماعة لأخرى .

وحينما بحثنا عن مثل لذلك وجدناه أول الأمر فى نهضة اليابان عن طريق تعلم الأفكار الأجنبية وهضمها ، ورأينا كيف خطت اليابان هذه الخطوة الهامة ثلاث مرات — إحداها إبان

العصور المظلمة فى القرن السابع . والثانية فى القرن التاسع عشر والثالثة تحت الاحتلال الأمريكى فى القرن الحالى .

وكانت تركيا مثلا ثانياً ، والمثل الثالث هو روما التى جعلت من نفسها تلميذة لليونان ، وقد رأينا كيف نقلت ثقافتها للبرابرة .

وأخيراً ألقينا نظرة على الاتحاد الثقافى العجيب بين العرب وأسبانيا ، وبين الأسبان وهنود أمريكا .

ولا شك فى أن هناك أمثلة عديدة أخرى لتحرك الأفكار بين الجماعات الوطنية والعنصرية فى مجال المجتمع والسياسة ، إلا أننا نرى الاكتفاء بالأمثلة التى ضربناها فى الوقت الحاضر ... بيد أنه يجدر بمن يدرس تاريخ الإنسانية أن يفعل ذلك من وجهة النظر هذه .

هناك أنواع كثيرة مختلفة من الخرائط ، يبين بعضها دول العالم وأجناسه ملونة لا حركة فيها ، قابعة فى مكانها كأنما لم يكن ثمة اتصال بينها ، وتفصلها حدود واضحة . والبعض الآخر يصور تدفق التيارات البحرية ، واندفاع الرياح وحركة المد والجزر فى الطقس ، التى تمر جيئة وذهاباً فوق دول الأرض وبحوارها . وهذه الخرائط تذكّرنا ــ أكثر من الخرائط السياسية ــ إننا

نعيش فى وحدة كونيـة . . . ويشبه التأمل فى حركة الفكر فى جميع أرجاء العالم رسم خريطة جديدة للعالم يمكننا أن نرى فيها الدول النائية يربطها ببعضها البعض مد وجزر غير منظورين وتيارات ثقافية تتحرك فى طرقات عجيبة حول العالم كله لتربط وتوحّد عقول الناس حتى تجعل منها شيئاً شبيهاً بعقل واحد جبار خارق للطبيعة .

٣

الدين والفن

يعتبر الدين من المصادر الرئيسية للإحساس الفني والابتكار. كما أن الفن وسيلة أساسية من وسائل التعبير عن التفكير الديني. وفي جميع أرجاء العالم — من معابد الصين إلى تماثيل المكسيك — ابتدع الفنانون أكثر الإنتاج الفني قوة وجمالا تبجيلا للآلهة، ومن المحقق أننا لن نستطيع أن نفهم أي دين، في قوته أو ضعفه، بغير أن نقدر الفن الذي أوحى به لعباده، فإن التراتيل والعظات القوية البسيطة التي تمتاز بها الكنيسة البروتستانتية، والمذابح ذات الزخارف الضخمة التي تمتاز بها كنائس الروم الكاثوليك، والصور المصنوعة من الفسيفساء بكنائس الروم الارثوذكس — كل هذه الاتجاهات تعبر عن ثلاث وسائل مشروعة للدنو من المسيحية.

إلا أن هناك بعض أديان لم يُعَبر عنها فنياً بما فيه الكفاية : إما لأن الفنيين أخفقوا فى بلوغ المستوى الضرورى من المهارة الفنية ، أو لبعض النقص الروحى ، أو لوجود لون من المعارضة غير قابل للذوبان فى عقول العابدين . وفى بعض الأحايين يخفق أحد الأديان فى إيجاد التعبير الفنى عنه ردحاً طويلا من الزمن ، ولكنه لا يلبث أن يحصل عليه فى مرحلة متأخرة نسبياً ، تحت تأثير فكرة جديدة أو حافز خارجى . ومن الأمثلة البارزة على هذه الحقيقة ، الفن البوذى الذى يصور لنا هجرة الأفكار تصويراً رائعاً . إذ توجد الآن كمية ضخمة من الفن البوذى كالتماثيل والجدران المزخرفة والصور والمعابد والزخارف الصغيرة التى تجسم حياة وتعاليم بوذا وأتباعه فى الشرق الأقصى . ولا شك فى أن كل زائر للمتاحف الغربيـة رأى على الأقل صورة واحـدة منحوتة لبوذا نفسه ــ ذلك الشكل الهادى. ذو المعطف المزخرف الذى تعبر كل قسمة فى وجهه عن السلام . بيد أنه لم يكن هناك فن بوذى ، أو كان هناك قليل منه خلال القرون الخمسة الأولى . ومن ثم كان ظهور هذا الفن حدثاً جديداً سببه استيراد الافكار اليونانية .

والبوذية ــ كالمسيحية والإسلام ــ دين سامٍ خلق فى

جو من الشرك . وهى مثلهما تأمر بالسلام والإحسان والثقة بالله وبالعدالة الإلهية . ولقد كان بوذا نفسه أميراً من أمراء شمال الهند عاش فيما بين عامى ٥٦٣ و ٤٨٣ قبل الميلاد (وكان اسمه سيداتذا جاوتاما ، وكان وريث ساكياس شمال أُوْده . أما بوذا فكان لقبه ومعناه المستنير) وعند ما كان شاباً صغيراً هجر منزله ، وترك زوجته وابنه متنازلا عن حقه وواجبه فى أن يخلف أباه على الإمارة ، وذلك لكى يجد وسيلة تمكّنه من الارتفاع فوق التزاحم المستمر للرغبات والأقدار البشرية . وظل سنوات طويلة يمارس التقشف المؤلم ويتبع علم الأخلاق الهندى ، ولكنه لم يلبث أن نبذهما باعتبارهما عقيمين . وقضى ردحاً طويلا من الزمن فى العزلة ، وهو نهب للشك والإغراء ، إلا أنه استطاع أن يصل إلى المعرفة فى النهاية بعد أن بذل جهوداً عقلية وروحية جبارة . استطاع أن يصل إلى إنجيل جديد ، إلى طريقة جديدة للحياة تشمل الأخلاق والدين معاً ، وتهدف إلى تأمين السلام الروحى الكامل . ولقد ظل يعلّم الناس هذا الدين الجديد سنوات طويلة رائحاً غادياً فى شمال الهند مع مجموعة من تلاميذه ، فلما بلغ من العمر عتياً مات بسلام مثلما عاش بسلام .

وبعد موته بدأت تقاليد حياته وأعماله تنمو حتى أصبحت إنجيلا كبيراً زاده الخيال الشرقى إتقاناً ، فحُفِظت جميع مخلفاته ، وأنشئت المزارات والأديرة وكلها مزخرفة بذكريات (المستنير) ، بيد أن فناناً هندياً واحداً لم يجرؤ لعدة مئات من السنين على رسم صورة بوذا نفسه ، فلماذا ؟ من الصعب الإجابة على هذا السؤال . لقد قرر فوشر — وكان يعرف عن الفن والتفكير الشرقيين أكثر من أى ناقد آخر فى هـذا الحقل — قرر أن ذلك راجع إلى « تأثير العادة » . ولا شك فى أن هذه الإجابة لا تغنى عن معرفة الحقيقة . ولعل الحل الصحيح يكمن فى أنه كان من المستحيل تقريباً رسم بوذا . فقد كان أكثر من مجرد رجل ، ولكنه لم يبلغ مرتبة الإله . كان يعلم التأمل العميق وينادى بالعفة والسلام ، ومن الصعب ترجمة هـذه التعاليم إلى صور وتماثيل . وعلى كل حال من المحقق أن وجه بوذا وجسمه لم يظهرا إطلاقاً فى الفن البوذى لفترة لا تقل عن خمسمائة عام منذ موت بوذا نفسه . ورغم أن ذلك أمر غريب ، فإن الأغرب منه أن الفنانين الهنود كثيراً ما كانوا يصورون مناظر من حياته وتعاليمه . وكانوا يملأون هذه الصور بأشخاص آخرين ، ويتعمدون عدم إظهار بوذا فيها ، ولو دعت الضرورة أن يكون هو الشخص الذى يتوسط الصورة .

مثال ذلك : يوجد فى سانشى إطار كبير محفور على جدار مرسوم فيه المنظر المؤثر الذى يبين رحيل الأمير الصغير نهائياً عن منزله . وفى هـذا المنظر يظهر الجواد فقط ، والآلهة الذين دعوه وساعدوه على الفرار . ولـكن بوذا نفسه لم يظهر فى الصورة ، فسرج الجواد شاغر . وفى هذا المنظر وفى جميع المناظر التى رُسمت لتمثل الحقبة الأولى من الفن البوذى لا يظهر أى جزء من جسم بوذا ، وأكثر ما نراه فى هذه الرسوم هو أثر أقدامه (وهى طريقة غير مباشرة يستعملهـا الهنود للتعبير عن الشخص الذى يحترمونه) ، أو مظلته التى تدل على ارتفاع مكانته كأمير ، أو عرش شاغر يقف أمامه رجل من الأتبـاع وهو يؤدى فروض الطاعة ، أو عجلة القانون التى ترمز لتعاليم بوذا ، ولـكن لا شيء أكثر من ذلك .

وفجأة ، وفى أحد أركان العـالم البوذى ، وبغير تطور أو إنذار وطنى سابق ، ظهرت مجموعة كبيرة من الصور المنحوتة تشتمل على جماعة من الناس متزاحمين حول صورة تكاد تنطق بالحياة لرجل جميل هو : بوذا . وهكذا بدلا من أن نرى عرشاً شاغراً بدأنا نرى شكل إنسان نبيل تبدو عليه علامات التفكير ، وبدلا من أن نرى سرجاً خالياً بدأنا نرى أميراً صغيراً يمتطى

صهوة جواده .. وهكذا تقرر أخيراً طابع بوذا سواء بمفرده أو مع تلاميذه .

فأين حدث هذا التقدم المفاجىء ، ومن الذى استهله ؟

لقد جاءت جميع هذه الصور المنحوتة من بلاد كانت يوماً تعتنق البوذية ، ولكنها إسلامية الآن : بلاد يبدو أنها أصبحت أقل خصوبة وسكاناً خلال القرون التى تلت ظهور البوذية ، كما أنها غيّرت لغتها وربما صفات جنسها أيضاً ، وسنطلق عليها (لأغراض تتعلق بهذه الدراسة) اسم جاندهارا ، أما موقعها فى أقصى الشمال الغربى بالباكستان ، وتقع على حدود أفغانستان وكشمير . . بلاد كلها تلال مملوءة بالتراب وسهول صخرية تقع بين بشاور ولاهور (ولعل اسم هذا البلد الخالد هو قندهار) وبعد وفاة بوذا بأكثر من قرن ، وصل الإسكندر الأكبر إلى قندهار. وفى حوالى القرن الثانى قبل الميلاد غزا الأمراء اليونانيون قندهار وهم فى طريقهم إلى الشرق الأوسط ، وأنشأوا مملكة من تلك الممالك التى تنشأ فى تقاطع الطرق ، تقابلت فيها الحضارة اليونانية وامتزجت بحضارة سهول آسيا الوسطى وحضارة الهند ذاتها . ومن الواضح أن مملكة جاندهارا ظلت على اتصال بالعالم الذى يسوده الخيال والتفكير اليونانيان عن طريق بلاد الشرق

الأوسط حتى بعد أن غلب الأمراء اليونانيون على أمرهم .

وفى هذا المكان ، وتحت تأثير آراء اليونان الفنية والدينية ، ظهر أول رسم منحوت لبوذا ، ومن هنـاك انتشرت هذه الرسومات فى الشرق كله ، وما زال تاريخ هذا الحادث محل خلاف ، ولـكن أوثق المصادر يقول أنه حدث فى النصف الثانى من القرن الميلادى الأول ـــ وهى فترة كانت المثل العليا الأخلاقية اليونانية تنتشر أثناءها فى الامبراطورية الرومانية حتى انجلترا ورومانيا وشمال ألمانيا كذا فى الشرق الأوسط . . ولقد كان هذا القرن من فترات الرخاء . أما أسماء الفنانين الذين استهلوا هذا التغيير الثورى فغير معروفين طبعاً ، ولـكننا نعرف بالتقريب من كانوا : لقد كانوا ولا شك يونانيين أو قوماً ممن يميلون إلى اليونانيين والتدريب اليونانى وأصبحوا شديدى الاهتمام بالبوذية(*) . ولقد واجهوا مشكلة رسم (المستنير) باعتباره إنساناً وباعتباره سوبرمان أيضاً ، ولمـا كان تفكيرهم ينحو إلى الناحية اليونانية ، فقد استطاعوا التغلب على هذه المشكلة . . ولقد كان الدين اليونانى مختلفاً عن أكثر الأديان القديمة من

(*) يقول سوبر أن أنطونيوس بويس أوفد أستاذاً فى النحت إلى بشاور بعد أن تلقى دعوة بذلك من « الهنود » .

حيث أنه يكاد أن يكون ديناً يعبد الأشكال البشرية ذات القوة الخارقة والجمال غير العادى ، فى حين كان المصريون يعبدون آلهة لها رؤوس حيوانات ، كما كانت شعوب أخرى قديمة تعبد الشمس والكواكب أو — مثل الرومان — شخصيات لم يستطيعوا تصويرها .

وعلى ذلك فإن أول تمثال لبوذا لا يظهره كحكيم من حكماء الشرق وإنما كالإله أبولو . فإن شعره ليس مقصوصاً أو محلوقاً كما ينبغى ، وإنما هو غزير متماوج يتجمع فى عقدة مثل شعر أبولو بلفدير . كما أن معطفه يتدلى حوله فى ثنيات رائعة كما هو الحال فى تماثيل اليونانيين وصورهم . أما تعبيرات وجهه فناطقة بشكل رائع ، فإن صورته التى رُسمت فى تلك المرحلة المبكرة تظهره مفتوح العينين ، تكاد تكون شفتاه مقلوبتين فى شبه ابتسامة مصحوبة بذلك التعبير اللطيف الهادىء الذى اشتهر به أبولو إله جمال الرجال .. والأثر الوحيد الذى يدل على أصل بوذا الشرقى فى مثل هذا التمثال هو وجود ثقبين فى حلمتى أذنيه واستطالتهما للدلالة على أنه قبل (الحلـق) الذى كان جزءاً من حليه كأمير ، ولكنه نبذه .. وفى بعض الأحيان ترى خلف رأسه هالة — وتلك صفة لا توجد فى الرسومات الهندية الخالصة ، كما أنها

تتصل اتصالا وثيقاً بإله النور أبولو .

بيد أنه توجد رسومات أخرى لبوذا مصاغة فى قالب إله يونانى ، ففى بعض الأحايين يظهر بوذا على شكل شاب مفكر واقف ، يرتدى معطفاً طويلا يتجمع بمهارة حوله ويكشف عن ذراعه وكتفه الأيمن : أما الذراع فمثنى بطريقة تجعل الرائى يظن أن الرسم قد صُنِع أثناء قيام بوذا بإتيان حركة ذات مغزى بيده . وهذا الوضع يجعلنا نرى من أول نظرة كيف صيغ بوذا على طراز يونانى آخر : طراز المثقف ـ المعلم أو الخطيب أو الفيلسوف الذى يمثله أروع تمثيل تمثال سوفوكليس الموجود بمتحف لاتران وصورة ديموسينيس المشهورة .

وإلى جانب هذه الصورة الفردية ، توجد رسوم جانداهارية أخرى عديدة منحوتة تظهر بوذا وبصحبته أناس وآلهة ، وإحدى هذه الصور تمثل موكباً : إنه منظر النبذ وقد رسم فيه الفنانون الأوائل جواداً ذا سرج شاغر ، ولكن نحاتى جاندهارا أجلسوا بوذا فوق جواد وأحاطوه بآلهة فى مجموعة منسجمة ـ آلهة ترتسم على شفاههم نصف الابتسامة السماوية المعروفة عن آلهة الإغريق . وعند ما نتأمل هذه الرسومات يتبين لنا أن هذا المنظر إنما أوحى به طراز آخر من الفن الغربى ، طراز

يونانى ـ رومانى هذه المرة . إذ أن هذا المنظر يبرز من ناحية التأليف والأوضاع والطراز بصفة عامة نفس الصفات التى اشتهرت فى الرسومات الرومانية التى تمثل وصول أو خروج امبراطور رومانى ظافر عند دخوله أو مغادرته إحدى المدن . وإنما الشيء الغريب أنه يوجد حالياً تابوت حجرى من عصر المسيحية ، إبان القرن الرابع ، رسم على جانبيه منظر لمركب مماثل جداً لهذا المنظر . بيد أن موضوع الرسم فى هـذا المنظر هو السيد المسيح ، وهو يركب أتاناً عند دخوله إلى بيت المقدس فى أحد السعف . وهو منظر يدل على الانتصـار . وفى حقب أخرى من حياة بوذا ، يمكننا أن نميز بسهولة كيف كان النحاتون يستلهمون نماذج الصور التى كانوا يرسمونها من مناظر مأخوذة من حيـاة أباطرة الرومان منفذة طبقاً للذوق والفن اليونانى . ففى أحد المناظر يبدو بوذا وهو يهدى قاتلا ، هو انجوليماليا الذى ألقى بنفسه عند ركبتى بوذا وخفض رأسه إلى الأرض أمام سيده . ونحن حينما نتأمل هـذا المنظر لا نلبث أن نذكر منظر أحد البرابرة وهو منبطح على وجهه أمام الفاتح الرومانى مثلما هو مبين فى إحدى الرسومات الخاصة بقسطنطين .

ومن الجائز أن تكون إحدى صفات هـذا التماثل أو اثنتين

منها مصادفة ، ولكن التماثل الكامل فيها ، قاطع فى معناه . ويشير النقاد إلى ديون أخرى يدين النحاتون الهنود بها لزملائهم اليونانيين . فمن هؤلاء تعلم الفنانون الهنود كيف يحققون التناسب فى رسوماتهم ، وكيف يستخدمون الفراغ الأبيض فى تصوير المسافات البعيدة والغرف فى هذه الرسومات . وواقع الأمر ، لقد تعلم الفنانون الهنود من الفنانين اليونانيين كيف يعالجون الحجر كحجر . كان نحتهم الأول يشبه فعلا رسومات نقلت على الحجر ، ولكنهم سرعان ما اكتسبوا ذلك الإحساس الخاص بالصلابة والحجم والهواء والضوء ، وهى خلاصة فن النحت اليونانى .

إن كثيراً من الأشكال وعناصر النحت التى عثر عليها فى مقاطعة جاندهارا تكاد تبدو وكأنها يونانية بحتة لا تمت إلى الشرق بسبب . فثمة أعمدة تنتهى بأوراق نبات قديم معروف فى طراز أطلق عليه إسم « هندى ـ كورنثى » ، وفى بعض الأحايين تظهر أشكال صغيرة الحجم بين أوراق الشجر مثلما تبدو فى تيجان أعمدة حمامات كاراكالا بروما . وتوجد إطارات منحوتة فوق الجدران مرسوم بها أشكال الآلهة من الأطفال والشباب يحملون أكاليل من الزهور المتماوجة أسفل منظر من مناظر

حياة بوذا ، بينما يحملون هالة فوق رأسه . ولعل لهؤلاء الأطفال إسما مبجلا فى الهند ولكننا نعرفهم باسم « كيوبيد » ، وثم رسم آخر لرجلين مسلحين وامرأة منذعرة وجواد مشدود إلى عربة تتحرك فى اتجاه سور مدينة . وليس من اليسير على الرائى أن يعرف أن هذا الرسم يصوِّر مدينة طروادة والجواد الخشبى وسينون ولاوكون ، ولو أن شكل الأنثى المترفة بخصرها النحيل وردفيها الممتلئين يجعلها تبدو كأميرة هندية أكثر مما تبدو من نساء كاساندرا ... وهناك أيضاً مواكب باكشافاليان التى يرقص المانيداس فيها على صوت الصنج ، والإله الثمل سيلنيس وهو يركب جواده ويسير بينهن ببطء — وهذا المنظر يذكِّرنا بأنه ، تبعاً للأسطورة ، فإن الإله ديونسيس نفسه غزا الهند وعلم الهنود كيف يستخدمون الكروم . ومن العجيب أنه رغم بُعْد جاندهارا عن البحر فإننا نجد إطارات رسم فيها آلهة البحر الأقوياء وهم يحملون المجاديف والدرافيل ، وأعجب من ذلك أن نجد وحوشاً بحرية وبشرية وحيوانية : جياداً مجنحة لها ذيول تنين تمثل قوة الأمواج ، كذا آلهة البحر أو الأسماك ذات الذقون والحوافر وذيول التنانين التى تستعمل فروتها المجدولة فى الضرب فى البحر الأبيض المتوسط ، بيد أنها حينما نُقِلت إلى أرض الدين الباطنى ،

جثت بجوار بوذا وقد ضمت يديها إلى بعضهما فى حركة تبجيل هندية . وحينما نقبل ــ مثلما يفعل أى مراقب رزين ــ النفوذ اليونانى فى منحوتات جانداهاراً ، فإنا لن نلبث أن نعثر على أثره أيضاً المرة بعد الأخرى . فإن رسم القاتل وهو متكىء على هراوته يذكـّرنا بهرقل ، كما أن منظر روح طائرة فى الهواء ذات جزع بشرى ضخم عارٍ ، ولحية ضخمة يذكـّرنا بهرقل وأطلس معاً . كذلك فإن رسم (بودهستيفا) وهو أحد الأشكال التى تجسد فيها بوذا فى مرحلة مبكرة ، ويبدو فيه فى شكل شاب رقيق خفيض الرأس يحمل أكاليل من الزهور ، يذكرنا بأنطونيوس .

من هذا المركز إذن تعلم العالم البوذى كله رسم صورة بوذا . ومن الطبيعى أن هذه الصورة تغيرت كلما رسم صورته فنانون من مختلف البلاد : سيلان وجاوه وأندونيسيا واليابان وجنوب الهند والصين والتبت . ولا شك فى أنه مما يجدر بالملاحظة أن نراقب التغييرات التى أثرت فيه من الفن الهندى بعد هذا العصر . فإن النحاتين لم يجرؤوا إطلاقاً على إلقاء الشّـَعر الذى أظهره به الفنانون اليونانيون الأوائل ، ولـكنهم تصرفوا فى كثافته كما قللوا من ثنياته المدلاة من رأسه ، وجعلوا ثوبه رفيعاً كما لو كانوا

قد غيروه من صوف يونانى إلى قطن شرقى مثلما جعلوه يبدو وكأنه قطعة من الجسد ، وبذلك فقد التأثير الجميل الذى أحدثه النحات اليونانى ، بما لجأوا إليه من تغيير فى علاج الثوب والجسد الذى تحته ، كما جعلوا الجسد أكبر ، ووضعوه فوق زهرة لوتس هائلة ، وقلبوه إلى شىء أشبه كثيراً بمعبود هائل . وأهم من ذلك كله فإنهم جعلوا عينيه — اللتين كانتا يوماً تتطلعان بشكل أخاذ من وجهه الأبولونى الجميل إلى العالم الخارجى — تغلقان بالتدريج وقد تبدت فيهما نظرة تنطوى على التأمل وظهرت عليهما علامات الإجهاد واختفت منهما كل عاطفة .. ولكن رغم كل هذه التغييرات ، فإن التكوينات الايكتوغرافية التى أبرزها الفنانون الأوائل فى جاندهارا حُفظت مئات من السنين بعد صنعها على مبعدة آلاف من الأميال ، ومن الممكن — حتى فى وجه البوذية العينية — أن نعثر فيها على شىء من علامة إله يونانى ، وأن نذكر شيئاً فى تدلى معطفه . وأغرب من هذا كله ، أن نرى فى « تل المعرفة » الموجود فوق رأسه ما يذكرنا بشعر أبولو الشاب كثير العقد .

تلك إذن هى إحدى الأمثلة القوية المقنعة على انتقال الأفكار فى حقل الدين والفن .. فقد كان اليونانيون هم الذين جعلوا الهنود

يرون الشكل الجسدى لمنقذهم ، وبذلك ساعدوا على تدرج البوذية من فلسفة (هينايانا) إلى دين (ماهايانا) وزودوهم بوسيلة قوية للدعاية لديانتهم هذه فى الشرق الأقصى جميعه .

* * *

لندر وجهنا الآن من الشرق إلى الغرب ، وسنجد أن اليونانيين هم الذين جعلوا فى إمكاننا أن نصور — بالفن منقذنا وحوادث حياته وقصته الدينية .. فمنذ أمد ليس بعيداً اكتشفت بعثة ألمانية أوفدت إلى آسيا الوسطى رسم جماعة صغيرة منحوتاً فى منطقة جاندهارا . ويبين الرسم شكل شاب راشد قوى عارى الساقين حتى منتصفهما وهو يحمل شكل طفل فوق أحد كتفيه ، وقد أمكن التعرف على هذا الشخص بسهولة بالرجوع إلى الأدب الهندى .. إنه إله الثراء بانكيكا ، ولقد كان هذا هو الشكل الذى تخيله عليه أولئك الذين عبدوه فى الهند .. بيد أننا إذا نظرنا إليه بالعين المسيحية فإننا نراه رسماً لشخصين من الأشخاص السماويين ، هما القديس كريستوفر وهو يحمل المسيح الطفل فوق كتفه ويعبر به النهر — وهذا المنظر يبدو فوق عدد كبير جداً من مداليات القديس كريستوفر . أما إذا استطعنا أن ننظر إليه بعين الوثنى أو المؤرخ الفنى (يكاد الإثنان يكونان شخصاً واحداً

فى بعض الأحايين) فإننا سوف نراه على حقيقته الأصلية : هرمس أو هرقل يحمل الطفل ديو نيسس . ولقد انتشر الموضوع نفسه والتجميع ذاته والفكرة نفسها أيضاً شرقاً وغرباً واستعملت فى دينين مختلفين نظراً لجمالها وقوتها .

ورغم أن هذا الموضوع لا يتصل ببحثنا إلا أنه من الأهمية بحيث يستحق أن نشير إليه .. إذ أنه ليس هناك وصف لظهور المسيح فى مصر المسيحية المبكرة . وإذا صرفنا النظر عن الصورة الإعجازية التى رسمها فيرونيكا ، فإننا لن نجد رسماً أو صورة للمسيح. ومع ذلك فإن الفنانين طالما تساءلوا كيف كان شكل السيد المسيح ؟ وارتاب بعضهم فيما إذا كان من الصواب أن يرسموا له صوراً (ولقد أدى هذا الشك القائم على الوصية الثانية التى تنهى عن تقديس التماثيل حدوث قتال أهلى عنيف كاد محطمو التماثيل أن يدمروا الامبراطورية البيزنطية فيه) . ولكننا لا نعلم ما الذى دفعهم إلى محاولة رسم السيد المسيح وقصة المسيحية ، إلا أنه من الجائز أن يكون ذلك راجعاً إلى تضاؤل نفوذ اليهودية وازدياد قوة الأفكار اليونانية فى الكنيسة الأولى (ويمكن تتبع الحركة نفسها فى التراتيل المسيحية ، وتطور الخطابة المسيحية ، ورقة الفلسفة المسيحية ، كما أنها ملحوظة بشكل مماثل فى تطور الطقوس

المسيحية التى أدت إلى تحويل منضدة العشاء الربانى إلى مذبح ، وتحويل أحد الأشخاص الأمناء إلى كاهن ، والعشاء الربانى نفسه إلى « لغز » لا يساهم الجميع فيه بدور واحد — ويتم فى بعض الكنائس خلف حجاب أو ستار أو باب ، فيحل بذلك محل الاشتراك الأخوى فى الوليمة الأولى) . ولهذا فإن التماثيل والرسومات الأولى التى وصلت إلينا من المسيحية المبكرة وثنية من ناحية التأليف والتنفيذ .

وأوضح مثل على ذلك هو رسم الملاك المسيحى ، وكلنا يعرف هذا الطراز : مخلوق له شعر مرسل ورداء طويل عائم وجناحين كبيرين . ويبدو فى جملته أقرب إلى الأنوثة منه إلى الرجولة . ولا يوجد فى الإنجيل وصف للملائكة : ومعنى اسمهم « الرسل » ، أما جنسهم فذكور . فكيف حدث هذا التغيير ؟ ومن أين استمد الفنانون التفاصيل ؟ لقد استمدوها من الشعر والنحت اليونانى الوثنى إذ أننا نعرف الملاك الآن باعتباره « النصر المجنح » .

إن الرسل والقديسين تحيط برؤوسهم دائماً تقريباً حلقات من النور الساطع فى الفن المسيحى . وليس لذلك وصف فى الإنجيل ، وإن كانت هناك لحظات من التبجيل يبدو فيها الجسد

كله محاطاً بالنور أو مغموراً به . ولقد نقل هذا الرسم فن التماثيل الوثنية ، ولقد رأينا كيف انتشرت هذه الفكرة شرقاً لتستقر فوق رأس بوذا .

أما شكل المسيح نفسه فلم يستطع النحاتون اليونانيون أو الرومانيون أو المسيحيون أن يتصوروه على شكل حاخام يهودى ، ومن ثم بحث الفنانون عن الطرز الكلاسيكية والوثنية حتى عثروا عليها . وهناك تماثيل صغيرة متعددة للمسيح على هيئة الراعى الصالح ، وقد وضع حملاً فوق كتفيه. ولقد استمدت هذه الفكرة من تماثيل قديمة للإله هرمس وهو يحمل حملاً فوق كتفيه . وكان هرمس حامى القطعان والأسراب ، ولكن المسيح كان أيضاً صوت العقل والمعلم الذى لا مثيل له ، ومن ثم فقد رُسِم وهو يلبس رداء ويأتى بحركة يشبهان تماماً ما اشتُهِر به المعلم اليونانى . ومع ذلك فإن جميع الأوضاع التى رُسِمت للسيد المسيح لا تعبر تماماً عن قوته الإعجازية ، ولذلك فقد رُسِمت صوره على جدران سراديب الموتى وهو جالس تحيط به الحيوانات الجميلة على هيئة ادرفيوس الموسيقى الشاعر صانع المعجزات محيي الموتى ومؤسس دين يحض على الزهد .

وبهذه الطريقة بدأت عملية تداخل الفن الوثنى والمسيحى

فى بعضهما ، تلك العملية التى استغرقت أمداً طويلاً واستمرت قروناً عديدة . وبعد أكثر من ألف عام عندما اكتشفت لاوكون ، استعمل تيتيان الوضع الذى يبدو عليه شبان طرواده أثناء مصرعهم لرسم صورة القديس سباستيان ، بينما استعمل الـ « جريكو » الأوضاع الثلاثة ليرسم صورته الخالدة التى تبين البعث الإلهى .

إن الفن بغير تقاليد أشبه بالنبات بغير تربة غنية عميقة . .

* * *

لقد شهد هذا العالم عدداً كبيراً من المعلمين الخالدين ، ولـكن أكثرهم عظمة وخلوداً هم رسل الأديان المختلفة . ولا شك فى أن أعظم طرق التعليم هى تلك التى حدثت بعد إدخال دين غريب بعيد فى جماعة وطنية كانت تشعر بعداء شديد نحوه ، ومع ذلك فإنها لم تلبث أن اعتنقته وهضمته . . . إن فى الإمكان تأليف كتاب عن الرسل ــ ليس فقط رسل المسيحية وإنما أيضاً رسل جميع الديانات السامية والفلسفات العالية أيضاً مثل فلسفة « عدم المبالاة » . . . إنهم مجموعة ملهمة من الرجال والملائكة والأبطال .

ولم يكن تأثير رسل الأديان العالمية متساوياً فى نقل الأفكار ،

ولا شك فى أن دراسة نشاط الرسل دراسة عميقة مستفيضة يؤدى إلى الكشف عن مبادىء عامة معينة ، وأما الآن فيمكننا أن نقول على سبيل التجربة أن الرسول قوى التأثير يحمل أفكاراً أكثر من دينه ، وهو — مع جماعة من الناس — يرحبون بهضم المجتمع للتعاليم التى يبشر بها ، ولكنه يحتفظ ببعض السيطرة على هذا المجتمع سواء أكانت سيطرة ذهنية أو اجتماعية ، كما يستمد الإلهام دائماً من مجتمعه الأصلى ، وينجح بالمنافسة ، ولكنه يموت إذا اشتدت هذه المنافسة أكثر من القدر المعقول . مثال ذلك أن رسل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الذين أوفدوا لنشر دينهم بين هنود بيوبللو لم يحدثوا تأثيراً كبيراً عندما كانوا ينتسبون إلى أصل إيرلندى أمريكى ، بينما توجد سجلات تدل على أن الرسل المسيحيين الـ Iroquois استطاعوا أن يؤثروا فى جماعات كاملة من الهنود الذين كانوا غرباء عليهم بمجرد الاحتكاك بهم — وذلك لأن التجاوب بين الفريقين كان أتم .

ويحسن بنا أن نشير إلى الأعمال التى قام بها الرسل النسطوريون (الأشوريون) الذين قاموا برحلات مذهلة فى الشرق الأقصى كله قادمين من وطنهم فى آشور أثناء الفترة التى

تتوسط سقوط الأمبراطورية الرومانية وعصر النهضة (كان هؤلاء الناس هم الكنيسة المسيحية الوحيدة فى آسيا فى أحد الأوقات . ولقد حاولوا مرتين وبنزاهة ، هداية الصينيين) ولكنهم أخفقوا — ومن المحتمل أن إخفاقهم هذا كان بسبب ما تعرضت له أمهم الكنيسة من هجمات متوالية ، كذا لصعوبة المواصلات . . . وعلى كل حال فإن حديثنا عن التأثير الخالص لنقل الأفكار يلزمنا بأن نقصر الكلام على رسل البوذية والجزويت . فقد غيَّرت كل من هاتين الجماعتين الصغيرتين تقاليد العالم ، إذ أحدث كل عضو منهما تأثيراً يزيد عن ذلك الذى يحدثه الرجل العادى آلاف المرات .

لقد بدأت البوذية كمذهب فلسفى صغير قاصراً على شمال الهند ، بدون أن تكون لها تعاليم مكتوبة ، ولا كنيسة منظمة ، بل لقد كانت ذات طابع هادىء ، وكان من الممكن أن يؤدى ذلك إلى عدم شيوعها وانتشارها . ولقد شهد العالم عدداً كبيراً من المذاهب المماثلة . ولكن من الواضح أن هداية الملك اسوكا (عام ٢٤٠ قبل الميلاد) هى التى أدت إلى انتشار البوذية كدين عالمى — وهى مكانة لا تزال تحتفظ بها رغم أنها تضاءلت فى وطنها الأصلى .

ويقال إن ماهيندا بن اسوكا هدى سكان سيلان . وما زالت سيلان معقل البوذية حتى الآن .

أما الصين فلم تهتد إطلاقاً ، رغم أن البوذية دخلتها وما زالت موجودة بها . وفى عام ٦٢ قبل الميلاد (كما تقول التقاليد) رأى « مينج - فى » امبراطور هان ، الرجل الذهبى فى الحكم ، فأوفد سفيراً إلى الغرب ليكتشف من يكون هذا الرجل . وعاد الرسول ومعه راهبان بدآ يعلمان الإمبراطور البوذية وعلم الفلك وكذلك نظام الأعداد العشرية . ومنذ ذلك الحين بدأ الحجاج الصينيون يذهبون إلى الهند ويجلبون معهم الكتب ويترجمونها : مثل هاسيوان - شو - يووانج الذى أحضر إلى وطنه مكتبة تشمل مؤلفات سانسكريت ، وقضى التسعة عشر عاماً الأخيرة من حياته فى ترجمتها إلى اللغة الصينية .

ولقد وصلت البوذية إلى اليابان عن طريق كوريا فى القرن السادس من العصر المسيحى ، ويقال أن أول رسول بوذى كان راهباً من الصين يدعى شيبا تاشيتو الذى هبط إلى اليابان وبنى معبداً واستمر يعبد بوذا بمفرده عدة سنوات ، إلى أن جلب رسل بوذيون أخر معلومات أتم عن البوذية وساعدوه فى الظفر بإقبال السكان .

أما معرفة تأثير البوذية فى البلاد الأخرى فأمر سهل وصعب فى آن واحد .. فمن الواضح أن البوذية أنتجت كمية هائلة من الفن المعمارى الجيد منه والسيء على حد سواء ، كما أحدثت انقلاباً فى المجتمع بهداية آلاف من الرجال والنساء وإبعادهم عن الحياة الدنيوية وإدماجهم فى حياة الصوامع والأديرة .

وعلاوة على ذلك ، فإن المؤرخين يشيرون إلى التغييرات التى حدثت فى الفن والشعر بالصين واليابان بتأثير البوذية . مثال ذلك ، أنهم — أى المؤرخون — يؤكدون أن الطباعة إنما اكتشفت للإكثار من الكتب المقدسة . وهم يقولون بثقة عظيمة أن البوذية أدخلت طرازاً جديداً ثميناً جداً (من وجهة النظر العالمية) فى الرسم : الطراز الرمزى الخيالى الذى لا يفى بالغرض المقصود والمعروف فى اليابان والصين معاً .. ويطلق عليه فى اليابان اسم « سوماى » ، ويتكون من اللونين الأسود والأبيض ، ويرسم بالمداد (الحبر) وعلى أرق ورق مستطاع ، والغرض منه أن يكون سريعاً تلقائياً وغير كامل لأن الحياة هى كل هذه الأشياء .. وقد قيل لنا أيضاً أن بوذية زن هى التى أوحت إلى باشو باختراع أو بعبارة أخرى بإحياء الشعر اليابانى ذى السبعة عشر مقطعاً الذى يعرف باسم (هايكو) . فقبل باشو ، كان هذا اللون من الشعر طريقة للعب بالألفاظ وضرب

الأمثال ، ولـكنه أنشأ نافذة صغيرة تطل على العالم(*) . كما ينسب الإخصائيون أيضاً إلى بوذية زن الاندفاع العجيب والغيرة التى يبديها اليابانيون فى المبارزة ، وتلك الوداعة والهدوء العجيبين اللذين تمتاز بهما حفلات الشاى اليابانية ، ويقولون أن هذه الصفات كانت نتيجة لتعليم أساتذة مذهب زن .

وشد ما أعجب ألا يمكن أن ينسب الهدوء والمهادنة اللتين يمتاز بهما الشرق — ولو جزئياً على الأقل — إلى تعاليم البوذية المتسامحة ؟ . . . وهل هناك عقيدة شرقية أخرى — فيما عدا

(*) مثال ذلك : « أن صراخ الجندب لا يعطى أية إشارة ، ولهذا فسرعان ما يموت » (باشو) .

« يا لسعادة المتسول الذى يرتدى السماء والأرض بدلا من ثياب الصيف » (كياكو) .

« لقــد استمتعت بالمساء كله فى صحبة شخص لا يقول كل ما يعتقده » (هاياكوشى) .

« فى هذا الربيع الشفاف يبدو كأن أحجار القاع تتحرك » (سوسكى) .

« أجبت وأنا أنفجر باكياً « أواه . . إن هزالى أحدثته حرارة الشمس » (كيجن) .

« إن الطيور التى تغرد بين الأشجار تسخر من الإنسان الذى لا يملك فراغاً » (شو — يو) .

الإسلام — علمت الناس كيف يكبتون الرغبة والعاطفة ، ونادت بالرفق العالمي بالنسبة للإنسان والحيوان على السواء ؟

* * *

إن أعظم وأكفأ رسالة تبشيرية بعثت بها أية كنيسة مسيحية هي بلا شك المجتمع المسيحي . وقد أُلْغِي هذا المجتمع بصفة رسمية في نهاية القرن الثامن عشر ، ورغم أنه استرد اعتباره فإنه لم يستعد جرأته على التبشير ، بيد أن المجتمع المسيحي غير تاريخ الكوكب الأرضي في القرنين الأولين لظهوره . فقد كان أول مجتمع ديني شمل العالم كله ، وأوفد رسله حتى بلغوا اليابان شرقاً وساحل أمريكا المطل على المحيط الهادي غرباً ، وكان واحداً من أعظم القوى التعليمية التي عرفها العالم . . إذ كان في استطاعته أن يعلم النبيل الفرنسي وزعيم القبيلة الهندي ونجل المأمور الصيني والسيد البولندي بنفس الكياسة والسحر مستهدفاً غايات واحدة تقريباً .

هناك دليلان على كفاية الجزويت كمعلمين : أنهم كادوا يفلحون في هداية مجتمع من أعرق المجتمعات المتحضرة في العالم — ونعني به المجتمع الصيني ، وآخر من أقلها حضارة وهو مجتمع هنود وسط أمريكا الجنوبية .

أما قصة نجاحهم القريب فى هداية الصينى فمعروفة جيداً : فقد تعلموا لغة الصين ثم فنونها وشعرها وفلسفتها ودخلوا الصين جزءاً فجزءاً بكياسة رائعة وحذر عظيم . وكانوا دائماً يقولون إنهم إنما جاءوا فقط ليتعلموا مزيداً من الثقافة الصينية ، ووطدوا أقدامهم فى البلاد بوصفهم علماء — علماء فلك أولا ، لأن الصينيين كانوا يعانون من القلق بسبب التقويم — واستقروا بادىء الأمر فى عاصمة الصين ، حيث أنشأوا مرصداً ، ثم غاصوا فى الحضارة الصينية حتى يستطيعوا تغييرها ببطء ، وأصبح أحدهم رساماً صينياً ذائع الصيت بينما أصبح آخر معلماً للامبراطور . . وقد نجحوا فى اليابان أيضاً . ولكنهم أصيبوا بالهزيمة بسبب مؤامرات منافسيهم الكاثوليك ، لا لفشل فنهم فى التعليم الذى قلما يوجد فن يباريه ، ولكن لأن المعلمين الأكفاء ليسوا دائماً سياسيين أكفاء .

وبالمثل دخل الجزويت إلى أمريكا الجنوبية حيث يوجد الآن شمال الأرجنتين وأرجواى وباراجواى مع الرعيل الأول من المهاجرين ، واستطاعوا أن يروضوا الهنود المتوحشين ، ويتعلموا لغتهم ، ويساعدوهم فى إيجاد طريقة للحياة أكثر راحة ونظاماً وصلاحاً . ثم بدأوا ينشئون حضارة . . فشيدوا القرى

وارتادوا المناطق المجهولة ورسموا لها الخرائط وأدخلوا الوسائل الزراعية النافعة ، وزراعة المحاصيل ، وتعلموا لغات الهنود وسجلوا قواعدها اللغوية كما ألـّفوا معاجم خاصة بها ، ثم درسوا الحياة النباتية هناك واكتشفوا الخواص غير المعروفة للنباتات ، ودرسوا الطقس ، وأنشأوا المراصد ، وعلموا الوطنيين كيف يبنون المنازل والكنائس ، وكيف يمارسون فن النحت والرسم ويلعبون الموسيقى (بعد قرن من وصول الجزويت ، اكتشف سائح فى بيرو أن الهنود كانوا لا يزالون ينشدون الأغانى ويرقصون الرقصات التى علّمها الجزويت إياهم) ، ونظموا مجتمع الهنود بطريقة تكفل مقاومة تجار العبيد الوافدين من البرازيل ، بل لقد أنشأوا جيشاً نظامياً وصنعوا مدفعاً يطلق القذائف . وما زالت أطلال أعمال الجزويت قائمة فى مقاطعة كادت تذهب بها الأيام منذ رحل الجزويت ؛ ومن الواضح أن هذه المقاطعة تنكرت للعلم فى سبيل الاستقلال السياسى والاجتماعى أو العزلة .

إن موضوع هجرة الثقافات كله يتعقد أحياناً بسبب العاطفة . وإنى لأذكر أن طالباً قال لى ذات مرة أن عمل المبشر عمل « خاطىء » لأنه « يتدخل » فى التطور الطبيعى للناس ، أو لأنه يفترض أن الأشخاص الذين يُوفَدون للتبشير « أحسن » من

أولئك الذين يُوفَد إليهم المبشرون . بيد أن مؤلف هذا الكتاب لا يجد من واجبه أن يصدر أحكاماً أدبية من هذا اللون ، وإنما نحن نناقش ما حدث ، ونحاول أن نستنتج كيف حدث . . أما كأفراد عاديين فإننا نستطيع قطعاً أن نقول أن معظم أعمال التبشير كانت نافعة عندما هبطت من ثقافة عالية إلى أخرى دنيا ، وأنه من الممكن ، وربما من الضرورى ، أن نؤكد تفوق بعض الوسائل على غيرها من هذه الناحية ، مثال ذلك ، أن من أعنف التغييرات التى أحدثها بجتمع بواسطة هجوم بمجموعات جديدة من الأفكار هو قطعاً ما حاوله الأسبانيون والبرتغاليون من تحويل هنود وسط وجنوب أمريكا من الوثنية إلى المسيحية . ويقال إن هذا التحويل لم يتم ، وأن المسيحية الهندية ما زالت تحتفظ ببعض علامات من الوثنية ، ذاتها «فرضت» على الهنود ، وأنها غيرت من طبيعتهم الحقيقية . . وهلم جرا . . بيد أننا إذا تذكرنا دين المكسيكيين البغيض الذى كان يبيح تضحية الإنسان على نطاق واسع ، وكيف كان كهنته ــ الذين لم يغسلوا أيديهم يوماً من دم ضحاياهم ــ يشقون صدر أحد الشبان بمدية من الحجر ويقتلعون قلبه الحى . وأنهم كانوا يسلخون جلد الضحايا وهم أحياء ويضحون بهم فى سبيل إله مسلوخ الجلد بدوره ــ

إذا تذكرنا ذلك كله ، فإننا لن نشعر بأى أسف من أجل التغيير الذى حدث وأدى بهؤلاء القوم إلى اعتناق دين سلام وإحسان تعتبر القسوة فيه خطيئة لا فضيلة عظيمة .

* * *

لنلق الآن نظرة على ما بلغناه من تقدم فى هذا البحث . . لقد تتبعنا فيما سلف من حديث حركة الأفكار من جماعة إلى أخرى كما يعبر عنها الدين والفن .

وكان المثل الأكبر الذى اخترناه هجرة الفنون والأفكار الفنية اليونانية إلى العالم الهندى والشرقى ، فرأينا كيف أمكن للبوذيين حينما اعتنقوا هذه الأفكار أن يحصلوا على فكرة جديدة عن دينهم وكيف انتشر هذا الدين فى الشرق الأقصى كله .

وثم مثل آخر ، وإن كان عبارة عن حركة بداخل ثقافة واحدة أكثر مما هو حركة من ثقافة إلى أخرى ، هو استخدام الرموز الوثنية فى الفن المسيحى .

وهناك مثل ثالث هو عمل المبشرين ، ولقد اخترنا من هذا الميدان مثلا واحداً فعالا بشكل خاص هو عمل رسل البوذية والجزويت .

وهناك ميادين أخرى كان يمكننا أن نرتادها . . فقد كان

فى استطاعتنا مثلا أن ندرس استخدام الترجمة فى نشر الأفكار الدينية والفلسفة ، كالتأثير العميق الذى أحدثه الانجيل الانجليزى بصفه خاصة فى التفكير البريطانى والأمريكى ، والتأثير العظيم الذى أحدثه أنجيل لوثر الألمانى فى التفكير والشعر الألمانى ، والتأثير الذى أحدثه نشاط البوذيين فى ترجمة مكتبات برمتها من إنتاج سانسكريتى فوسعوا بذلك نطاق لغتهم . . وترجمة إنتاج أفلاطون من اليونانية إلى العربية ومن العربية إلى لاتينية أوربا الغربية — كان فى استطاعتنا أن نتحدث فى هذا كله . كما كان فى استطاعتنا أيضاً أن نشير إلى أنه يحدث أحياناً أن تكون الترجمة الجديدة بمثابة حافز جديد على التفكير فى الموضوع ولو لم تكن هذه الترجمة الجديدة أفضل من الترجمة القديمة . . . كما لاحظنا فى الترجمة الجديدة للإنجيل فى العصر الحديث .

وكان فى استطاعتنا أيضاً أن نقضى ساعة ممتعة فى الحديث عن موضوع أشرنا إليه بإيجاز ، وهو إحياء الفن اليونانى والرومانى فى الفن الحديث إبتداء من عصر النهضة بعد أن نسيها العالم زهاء ألف عام.. كما كان يجب علينا أن نشير إلى القوة الدافعة الضخمة التى مُنحت للرسم والنحت والمعمار والزخرفة الداخلية نتيجة لازدياد اكتشاف وتقدير الأشياء اليونانية والرومانية ،

من الأبنية اليونانية الجميلة الموجودة فى الولايات المتحدة الجنوبية إلى الكنائس نصف اليونانية الفاخرة الموجودة فى الشمال ، من آرك دى تريومف (قوس النصر) إلى المادلين ، ومن قبة كنيسة سانت بول إلى الكابيتول ، ومن نحت برنينى إلى رسومات بوسين ، ومن دافيد إلى ميشيل انجلو .

ولعله كان فى استطاعتنا أيضاً أن نقول شيئاً عن الفنانين الرحل كالماسون الذين بنوا كاندرائيات القرون الوسطى ، وعن رجال مثل ديورد أو ستورت « الأثينى » الذى كانت زيارته لأثينا فى عام ١٧٦٢ بمثابة أحياء للفن اليونانى .

ولكننا اكتفينا بذكر المعلومات الهامة من هذا الموضوع الخلاب .. إن كثيراً من الفنانين أنانيون ، وكثيراً من المبشرين ذوو تفكير خاطىء ، وكثيراً من رجال الدين محدودو التفكير بدرجة مؤلمة ، ومع ذلك فإن من نعمة الله الدائمة علينا نحن البشر العادى أن نراقب حركة الروح البشرية وهى تنتقل من جماعة إلى أخرى لتنتج تقديراً أسهل أو أتم لما فى هذا العالم من جمال ، وإدراكا أغنى للذات الكامنة فى أعماقنا والذات التى فوقنا .

٤

الفنون والمثل العليا

كان تفكيرنا فى المراحل الأولى من هذا الحديث ، منصباً على الأشياء غير المادية — على الرسومات الوطنية ، وطرق رسم شكل دينى كبير ، وعلى طوابع الشعر ، وأنواع النشاط الدينى . ويمكن تصوير حركة الأفكار أيضاً بالطريقة الوحيدة التى ترحل بها المخترعات الحديثة عبر العالم - فنون جديدة فى استخدام الأشياء المادية . فهذه أيضاً تغير التاريخ .

وأحد هذه الاختراعات : الورق .. فقد اكتشفه الصينى تسى آى لون عام ١٠٥ قبل الميلاد . وما كاد هذا الاختراع يُكتَشف حتى دفع بالأدب والثقافة الصينيين دفعة كبيرة إلى الأمام . وظل استعمال الورق قاصراً على الشرق الأقصى فترة من الوقت (فى تلك الأثناء كان المصريون والرومانيون

يستعملون شيئاً أقل كفاية ولكنه أرخص وأسهل استخداماً : ورق البردى الذى كان يصنع من لب نبات مائى شبيه بالغاب ، وحوالى نهاية الامبراطورية الرومانية ، توقف الرومانيون عن استخدام ورق البردى وبدأوا يكتبون على جلد العجل المعد خصيصاً للكتابة ، وكان يطلق عليه اسم ورق الكتابة أو « بارشمانت » ، ومن المحتمل أن هذا التغيير حدث لأن الغزاة العرب الذين فتحوا مصر قضوا على تجارة ورق البردى . على أنه من المحقق أن من بين الأسباب التى أدت إلى تضاؤل الأدب فى القرون الوسطى أنه كُتِب على ورق الكتابة (وهو مادة نادرة مرتفعة الثمن) . على أنه سرعان ما بدأ الورق يصل — بواحدة من تلك العمليات الغريبة للتى لا يكاد يتصورها العقل — إلى العالم الغربى قادماً من الشرق الأقصى . وحوالى عام ٧٠٠ هوجمت حامية عربية كانت موجودة فى مدينة سمرقند التجارية . هاجمتها قوة صينية عسكرية ، فطاردها العرب وهاجموها وأسروا بعض رجالها ، وكان من بين الأسرى بعض صناع الورق من الصينيين ، وقد علم هؤلاء الأسرى العرب كيفية صناعة الورق ، ومنذ ذلك الحين كُتِب الأدب العربى كله تقريباً على الورق ، وبذلك أصبح غنياً فى تنوعه وكميته . وقد انقضت ثلاثة قرون تقريباً

قبل أن يصل الورق إلى أوربا المسيحية . وهبط أول ما هبط فى صقلية حوالى عام ١١٠٠ ، وفى أسبانيا حوالى عام ١١٥٠ ، ثم انتشر فى ألمانيا ففرنسا فبريطانيا . أما تأثيره على التعليم وجميع فنون الحضارة منذ ذلك الحين فكان هائلا ولم ينته هذا التأثير بعد .

إننا ننسى أحياناً أهم المخترعات التى اكتشفها الإنسان منذ وجد على ظهر البسيطة ، ولا شك فى أن أهم هذه الاختراعات هو المحاصيل الزراعية . فنحن قلما نأكل الآن شيئاً برياً ، فإن جميع الخضروات والحبوب والفاكهة والجذور التى نأكلها من استنبات الإنسان . فى مكان ما ، وزمن ما ، أخذ أحد المخترعين (أو جماعة من المخترعين) نباتاً برياً وأكله ووجد طعمه جيداً . ثم اكتشف كيف يجعله ينمو بانتظام ، وقد حسن نوعه بالتدقيق فى الاختيار . ثم استخدمه بطرق مختلفة ، ولا شك فى أن الطهى اخترع فى الوقت ذاته تقريباً ، إذ أن كثيراً من النباتات لا يصلح للأكل وهو نيء . فكان لا بد من طحنه وخبزه أو غليه أو تجفيفه أو (تسبيكه) .

فأين حدثت هذه الاختراعات ؟ وأين زرعت النباتات ؟

يوجد حوالى إثنى عشر مركزاً جاءت منها النباتات المزروعة أصلا ، فقد اخترعت النباتات هناك ، ومن هذه المراكز انتشرت

زراعة النباتات فى جميع أنحاء العالم منيرة حياة البشر وهى ماضية فى طريقها .

(١) أن أهم ، وربما أقدم ، مركز من مراكز الاختراع هذه هى التلال والأراضى المنخفضة الموجودة فى وسط الصين وغربها. فهناك نشأ مالايقل عن ١٣٦ نباتاً صالحاً للأكل والشرب بما فيها الشاى ، وأربعة عشر صنفاً من الحبوب (بمجموعة منوعة من الأذرة العويجة والحنطة السوداء) والراوند والكريز والخوخ والمشمش وأنواعاً عديدة من الفجل واللفت (يبلغ وزن بعض أنواع الفجل الصينى ٢٦ رطلا) ، والبصل الأسبانى والخس .

(٢) والمركز التالى فى الأهمية هو الهند ، فهى محل ميلاد ١١٧ نباتاً بما فيها الأرز (الذى صدر إلى الصين فيما بعد) وقصب السكر والبرتقال والليمون والمانجو والخيار والباذنجان والجوت .

(٣) أما المركز الثالث ، وإن لم يكن قد اكتشف تماماً ، فهو جزر الهند الشرقية (بما فيها جاوه والفلبين) وقد أنتجت وزرعت ٥٥ نباتاً بما فيها نخيل جوز الهند والموز وثمر شجرة الخبز وكثيراً من التوابل .

(٤) تأتى بعد ذلك آسيا الوسطى ، النجد العالى (شمال غرب الهند وكشمير وتيان شان وأفغانستان) وهى موطن ٤٢ نباتاً بما فيها القمح (مازالت أنواع مختلفة كثيرة تنمو هناك شبه برية) والعنب والقطن والجزر واللفت والثوم والحبوب والعدس والفول والخردل والكتان .

(٥) أما أول محصول من العلف واول أنواع الحدائق فقد اخترعت فى الشرق الأوسط ، وكان عدد نباتاتها ٣٨ نوعاً بما فيها العنب أيضاً والجودار والشوفان وأنواع عديدة من القمح والعنب والكرنب والقرع والورد والتين والكمثرى والخشخاش (أبو النوم) والرمان .

(٦) ويأتى بعد ذلك حوض البحر الأبيض المتوسط موطن الزيتون مع كثير من الخضروات وبعض محاصيل العلف . . وهنا نجد حشيشة الدينار والكراث والبنجر والخرشوف ومجموعة مختلفة من القمح مثل القمح « البولندى » .

(٧) وهناك بعد ذلك الحبشة التى لم تكن بها فاكهة أو خضروات حتى أدخلهما الأوربيون فيها ، ولكن كانت توجد بها مجموعة مدهشة من الحبوب يبلغ مجموعها ٣٨ نوعاً ، ومن

الجائز أنها كانت الموطن الأصلى للشعير وغيره من مختلف أنواع القمح .

(٨) أما فى أمريكا فكان المركز الرئيسى أمريكا الوسطى موطن الذرة والقطن (الذى يرتكز عليه المحصول العالمى) والبطاطس والكاكاو وغيرها .

(٩) وتأتى بعد ذلك الأراضى المرتفعة فى بيرو وبولونيا والكوادور المملوءة بالتوابل الوطنية التى لم يتم تطورها نهائياً حتى الآن .. كما أنها تنتج التبغ ومجموعة منوعة من القرع والبطاطس (أما البطاطس « الايرلندية » فتأتى من جزيرة شيلو الصغيرة القريبة من شيلى) .

(١٠) وآخر هذه المراكز هو البرازيل وبرجواى ، وينتجان الفول السودانى والأناناس والمطاط .

ومن بين الـ ٦٤٠ نباتاً الأساسية ، ينتمى أكثر من ٥٠٠ إلى العالم القديم بينما ينتمى ٤٠٠ إلى جنوب آسيا . وقد جاء عدد قليل منها من أفريقيا ، بينما لا يكاد شىء منها يجىء من أستراليا . بالطبع ، من الجائز أن تنبت نباتات ذات أهمية عظيمة فى أى مكان مثال ذلك أن الموالح نبتت أصلا فى جنوب شرق آسيا ، ولكن أهم نوع من أنواع البرتقال ظهر أول الأمر فى البرازيل .

ليست جميع النباتات ذات أهمية عظمى : فإن فى استطاعتنا أن نعيش بغير البصل ، كما أن حياتنا لن تتوقف إذا انمحى المشمش من الوجود . ومع أن الخوخ ضرورى جداً فى جورجيا فإنه ليس كذلك فى فيرمونت(*) .. ومع ذلك فإن أجزاء كبيرة من عالمنا مبنية على القمح والأرز والقطن والقنب وجوز الهند .. ولقد كتب تاريخ اجتماعى هام حول البطاطس . ومن الجائز أن نظن أن مثل هذه الأغذية إنما الغرض منها إطعام أجسام الناس ولكنها لا تؤثر فى عقولهم . لكن فكر فى تأثير مجاعة البطاطس الإيرلندى القومى على الروح المعنوية ، وبالتالى على تاريخ الجزر البريطانية والولايات المتحدة .

هناك اختراعان حديثان هامان يؤثران تأثيراً مباشراً على عقول البشر ويمكنهما أن يحيطا بالعالم إبان حياتنا .. هذان هما

(*) خطرت لهوراس ولبول مرة أفكار عديدة عن التجارة والحضارة اللتين يمكن أن تنشأ من مائدة طعام فقال : « هل يمكنك أن تتناول الحلوى من الذاكرة ؟ الكريز والبندق فى بونتاس والليمون الحلو من ميديا والكستناء من كاستانا بآسيا الصغرى والخوخ والجوز من فارس والبرقوق من سوريا والرمان من قبرص والسفرجل من صيدا والزيتون والتين من اليونان ؟ حتى أنواع التفاح والكمثرى وإن وجدا بريين فى فرنسا وهنا أيضاً أما المشمش فمن أرمينيا » (نقلا عن كتاب حديث المائدة — طبعة ج . ثورنتون بنيويورك عام ١٩٣٤ ص ١٢٥) .

الصور المتحركة والراديو . . أما قصة تقدمهما وانتشارهما فمعروفة جيداً . . لكن ماذا سيكون تأثيرهما ؟ لقد سمعنا المتفائلين يقولون إن مثل هذا الاختراع — الذى يجعل الاتصال أكثر سهولة — يجب أن يساعد الديموقراطية . ويزيد من الثقافة .. ولكن هل هذا مؤكد ؟

إن الراديو اختراع يتساوى فى الأهمية مع الورق . فإن الناس يتكلمون ويسمعون وقتاً أطول كثيراً من ذلك الذى يصرفونه فى القراءة والكتابة . . ومعظم الناس فى هذا العالم أميون أو قليلو العلم ، ولكنهم جميعاً يحبون الإصغاء للقصص والموسيقى . . كذلك فإن القراءة والكتابة مشروعان فرديان إلى حد كبير : شخص يكتب ويقدم أفكاره لأشخاص آخرين يقرأون كتبه منفصلين ويهضمونها كل على حدة . ولكن الاستماع نشاط جماعى . . ولقد أحبت المجتمعات الكبيرة من العالم الأمى الإصغاء دائماً — والثرثرة . . فهى تحب أن تصغى إلى القصص التى يسردها رواة القصص المحترفون ، وإلى الشعر يرويه كتابه ، وإلى المراسيم الدينية يؤديها رجال الدين . . وهلم جرا . ولقد أصبح فى استطاعة هذه المجتمعات أن تستمع الآن ، إلى أصوات الحكام وهم يتحدثون إليها بلهجة الإقناع وبلغاتها .

وبسبب هذا السلطان وسهولة اجتذاب السامعين ، فإن من الممكن جداً أن ينشر الراديو الطغيان لا الحرية . . فلو منحت أجهزة راديو رخيصة إلى جمهور كبير يعيش فى أحوال بسيطة ولا يعرف القراءة ، وإذا تعرض مثل هذا الجمهور باستمرار لدعاية معينة عن طريق الحديث فى الراديو ، فإن عقله قد يتكيف سريعاً فيقبل ما يلقيه عليه من الحكام .

وبالمثل ، إننا نعتقد أن التصويت حق قاصر على الشخص المتعلم ، ولكن هذا الحق مباح فى كثير من مناطق العالم الكبيرة لكل شخص يستطيع أن يتطلع إلى الرمز ويرسم علامة على ورقة . . . والآن ، ما هو التأثير الذى تستطيع الصور المتحركة أن تحدثه فى مثل هذه الشعوب ؟ بالطبع ، إنها تملك القوة على زيادة الانفعال العاطفى والإقلال من الانعكاس العقلى بالنسبة للشئون الاجتماعية والسياسة العاجلة .. يقول الرجل الصينى أن الصورة تساوى ألف كلمة ، وليس هناك شك فى أنها أكثر إثارة منها عادة . . بل إن الصور التى تتحرك وتتكلم أكثر إثارة من الناحية العاطفية . . إنها جد قوية — ولكنى لن أطلق عليها « أفكار » وإنما أعتبرها جذور أفكار تستطيع أن تطبع الاتجاهات القوية والتحامل فى عقول الجماهير الضخمة إذا

استخدمت (أى الصور المتحركة) بمهارة . . وواقع الأمر أنه كلما عم استعمال الراديو والصور المتحركة ، وكلما تحسنت طرق الدعاية المستخدمة فيهما ، أمكننا أن نتوقع أن نرى العالم وقد أصبح أكثر تعقلا ولكنه أكثر قابلية لسرعة الانفعال والخصام والتشاؤم ، يحب بجنون ويكره بوحشية ، شجاعاً متذمراً ولكنه ندر أن يكون عاقلا .

هناك أمثلة أخرى لا حصر لها ولا عد على انتشار الاختراعات والفنون بعضها معقد إلى درجة لا تصدق ، خذ مثلاً صغيراً : فن الاستحمام الذى يوجد حالياً فى النوادى والحمامات والملاعب المزودة بغرف البخار والتدليك والحمامات الباردة و (الدوش) . . إن هذا النظام من أقدم النظم المعروفة فى العالم الغربى ، ومع ذلك فقد نسيه العالم الغربى ألف عام . ثم ظهر فى إلياذة هوميروس . ثم نقله الرومان (ككل شىء آخر) عن العصر اليونانى المتأخر ، وهذبوه وجعلوا منه شيئاً ضخماً بشكل لا يكاد يصدقه العقل ، ومعقداً . فقد كانت الحمامات العامة فى روما من الضخامة والتعقيد مثل راديو سيتى . . ولتتصور مبلغ هذه الضخامة يكفى أن تذكر أن محطة بنسلفانيا فى نيويورك مصاغة على هيئة غرفة واحدة فى حمامات كاركالا .

ولكن حينما جاء البرابرة وأوقفوا هذه الحمامات لم يلبث الغرب أن نسيها .. ولقد كان المتعبدون المسيحيون محاطين بجو خاص . أما ما عداهم فكانوا يغطسون فى حمامات باردة صغيرة أو ساخنة فى المنازل ومع ذلك فإن فن النظافة فى الإمبراطورية الشرقية انتعش بسبب الحمامات الضخمة التى أقيمت فيها .. فعندما استولى الترك على بيزنطة عاصمة الإمبراطورية الشرقية فى عام ١٤٥٣ استخدموا هذا الفن . وبعد ذلك بحوالى ثلثمائة عام رأى أحد المسافرين الغربيين هذه الحمامات فى تركيا ومر بها فأحبها ، وعندما عاد إلى انجلترا أدخلها بها . وسرعان ما أنشئت الحمامات فى مختلف المدن الإنجليزية حيث زودت بوسائل التدليك وغرف البخار ، وهى كثيراً ما تحمل الإسم العربى (حمام) . وكثيراً ما يطلق عليها اسم « الحمامات التركية » ولكنها ليست تركية .. إنها يونانية — رومانية وهو أمر ندر أن يفهمه رواد الحمامات « التركية » فى لندن ، وهم راقدون للاستعانة بالبخار فى طرد (الرطوبة) من عظامهم ، مع أنهم على مبعدة خطوات قليلة من بقايا الحمام الرومانى الذى أنشأه الرومان المستعمرون فى بريطانيا منذ حوالى ألف عام .

٥

خاتمــة

أجملنا فى حديثنـــا السابق مدخلاً غير عادى لدراسة التاريخ ، وقلنا إنه يفسر كثيراً من المشكلات التى يعالجها المؤرخون العاديون علاجاً غير مناسب . صحيح إن الإنسـان مخلوق يحب القوة ويخشى الضغط والكبت — ولهذا فإن السياسة تطغى على قسم كبير من تاريخه — كما أن الإنسان مخلوق يهوى الصناعة ، كما أنه جشع ، ولهذا فإن الاقتصاد يطغى أيضاً على قسم كبير من تاريخه . ولـكن الإنسان يختلف أيضاً عن كل مخلوق فى هذا العالم تقريباً من حيث أن له عقلاً ، وعقلاً كبيراً يتمتع بالقـدرة على استخدامه . . ويطلق على جنسنا اسم « هومو ساباين » . ولمـا كنا نتمتع بنعمة العقل والقدرة على التفكير فيجب أن يُكتب تاريخنا أيضاً بعبارات من الأفكار .

ورغم أن الدنو من التاريخ بهذه الطريقة أمر غريب إلا أنه ليس جديداً تماماً .. إذ لو كان كذلك لتعين علينا أن نرتاب فى أمره ولو قليلا .. ومع ذلك فإن مجموعات مختلفة من العلماء تعالج الموضوع من هذه الناحية منذ أمد غير قريب .

لقد رأى المؤرخون حديثاً بوضوح أكثر فأكثر أن التاريخ ليس سياسة فقط ، وأن من المستحيل أن نفصل السياسة عن الدين ، والدين عن الحياة الاجتماعية ، والحياة الاجتماعية عن الآداب والفنون ، وبصفة عامة أن نفرّق بين الخيوط التى تمتزج معاً لتكوّن نسيج ثقافة كاملة . ولقد كتب بعض المؤرخين أسفاراً هامة عن الثقافات المفردة ، ولكنهم أخطأوا حينما عالجوا هذه الثقافات على حدة ، كما لو كانت كل منها تتألف فقط من أناس متداخلين فى بعضهم البعض فى بيئتهم المادية ، رغم أن الحقيقة هى أن الأفكار المحيطة والأقوام المجاورة هما جزء قوى نشط للبيئة فى كثير من الحضارات . ولقد كانت هذه إحدى الأخطاء التى وقع فيها أزوالد سبنجلر ، ولكن مستر ارنولد تونبى لم يرتكب هذا الخطأ ، فإن المجلدين التاسع والعاشر من كتابه « دراسة فى التاريخ » اللذين يوشكان على الظهور يهتمان « بالاتصال بين الحضارات » فى الفراغ والزمن . ورغم أنه يعالج

أساساً الاتصال المنطوى على العنف أوالتفرقة — بل إنه يسرف فى هذا العلاج إلى درجة أنه يرى أحياناً الحضارات المتداخلة المتفاعلة وكأنها « معتد وضحية » — كما أنه يبرز أهمية العلاقات السلمية والتعليمية بين مختلف الثقافات ، ويرسم صوراً معينة « لقوانين الإشعاع الثقافى » التى توضح هذه العلاقات بعبارات من نظريته العامة عن التاريخ .

ويبدى علماء الاجتماع والنفس اهتماماً بالفكرة لا من حيث أنها ظاهرة تاريخية ولكن باعتبارها عاملا متجدد الحدوث فى الحياة المعاصرة . ومن ثم فإنهم يقولون إنه ليس من المفيد جداً أن ندرس ثقافة « أمرندية » واحدة كما لو كانت قائمة بذاتها فى الفراغ . ذلك لأن معظم الثقافات (الأمرندية) كانت تتصادم إحداها مع الأخرى ، غازية أو هاربة أو منافسة ، وكان معتنقوها يكيفون حياتهم تبعاً للواحدة أو الأخرى . . ومن ثم فإن من المستحيل أن نفهم القوم الذين يعرفون باسم (هوبى) بغير أن نعلم أنهم كانوا يتعرضون دائماً لإغارة الـ (نافاهو) عليهم . . أما المصادمات فى العصر الحديث فأكثر أهمية . . فحينما يدخل الإنسان إحدى قرى الـ (بيوبلو) التى تبدو وكأنها لم تتغير منذ أنشئت فى القرن السادس ، فإنه يسمع الناس يتكلمون

اللغة القديمة ويراهم لا يزالون يصنعون الآنية الخزفية القديمة ، كما يلاحظ أيضاً وجود زجاجة فارغة فى أحد الأركان ، ويسمع موسيقى راقصة أسبانية أمريكية تنبعث من جهاز للراديو . . أما الويسكى فقد اخترعه الكلت ، ولعل قدماء المصريين هم الذين اخترعوا الزجاج فى حين اخترع علماء الغرب وأمريكا الراديو ، ولعل الموسيقى الراقصة من وضع أحد أحفاد الغزاة الأسبان . ومع ذلك فإن جميع هـذه الأشياء أجزاء من ثقافة الهندى الـ (بيوبلو) .

لقد كان أكبر هجوم شُنّ على هذه المشكلة هو الهجوم الذى قام به علماء الأنثروبولوجيا . وما أطلقنا عليه ، « هجرة الأفكار » يطلقون هم عليه عادة امتزاج الأفكار فى هذه البلاد و « إتصال الثقافات » فى بريطانيا . ولقد درس هذا الموضوع بإسهاب كل من ا . ل . كروبر من كاليفورنيا ، وملفيل هيركسفوتس من نورث ويسترن ، ورالف لينتون من كولومبيا وبيل وروبرت ردفيلد من شيكاغو وغيرهم . . أما الطالب الذى لا يلم بعلم الأنثروبولوجيا فقد يجد فى عملهم هذا تنظيما رائعاً وإن كان محدوداً للغاية وقاصراً على مشاكل صغيرة تسهل السيطرة عليها ، مثل تفاعل سكان جزر البحار الجنوبية البدائيين مع الجنس

الأبيض ، ولكن ليس هناك شك فى أن هؤلاء العلماء قد عالجوا موضوعات وأبحاث هامة عديدة .

إن الخطوات الأولى الهامة فى دراسة هذا الموضوع هى تفسير الفكرة ، وإبراز أهميتها ، واختيار مناسبات قليلة بارزة تلهب الخيال ، ورسم وسائل الدراسة فى المستقبل (يرى علماء الأنثروبولوجيا أن ردفيلد ولينتون وهرسكوفتش قد حققوا هذه الغاية بشكل رائع فى كتيب أطلقوا عليه اسم « موجز لدراسة امتزاج الأفكار ـــ ألفوه فى عام ١٩٣٦ وطبعوه كملحق كتاب هرسكوفتش) .

من الضرورى أولا أن نحدد الموضوع بشجاعة وبخطوط عريضة . . أن هذا اللون من التاريخ يدرس التغيرات التى تحدثها فى إحدى الثقافات عناصر أدخلت عليها من ثقافة أخرى . . إنه لا يفحص نمو الفلسفة اليونانية أو تطور الرئاسة الأمريكية لأن كلا منهما يكاد أن يكون أمراً داخلياً بحتاً ، ولكنه يهتم بأثر الفلسفة اليونانية فى الحضارة العربية ، أو باحتمال أن يكون « توازن القوى » الذى يستقر عليه نظام الحكم الأمريكى مثلا أعلى رومانياً وضعه بوليبوس الفيلسوف المؤرخ اليونانى

وصُدِّر إلى المستعمرات الأمريكية عن طريق فرنسا فى القرن الثامن عشر .

ويقول لنا علماء الأنثروبولوجيا بعد ذلك أنه يجب علينا أن نفرق بين الأفكار والأشياء ، وبين الجوانب المادية والجوانب غير المادية للثقافة ، بينما يعتقد المؤرخون والفلاسفة أنه يجدر بنا أن نفرق بين الفنون والمثل العليا . ومع ذلك ستكون هناك حالات كثيرة ذات خط فاصل عريض . . فقد قيل يوماً أن الأشياء المادية يمكن الاستيلاء عليها بسهولة ، والأشكال غير المادية بصعوبة كبيرة . ولهذا فقدكان من السهل على الهندى الأحمر أن يستعمل الجياد بدلا من الكلاب كحيوانات للجر ، ولكن كان من الصعب عليه أن يتخلى عن نظامه القبلى . ومن المشاكل الرئيسية التى تواجه الآن أولئك الذين يهتمون بالشرق الأقصى ، التأكد من أن المثل العليا الغربية (أحسنها طبعاً) تنتقل إلى الشرقيين مع التكنولوجيا الغربية . ومع ذلك فهناك مصاعب أيضاً ، فقد كان الصينيون على استعداد دائماً لقبول البدع الروحية أكثر من استعدادهم لقبول الاختراعات الجديدة والوسائل الجديدة لطهى الطعام وعزق الأرض .

كذلك يجب علينا أن نناقش الوسائل التى أُدْخِلت بها

الأفكار الجديدة ــ بالقوة أو بالإقناع أو بمجرد الجاذبية ، وعلى آماد طويلة من الزمن والفراغ ، أو بالاتصال الوثيق مثلما كان الحال بين العرب والأسبان . . لقد أشار مستركرويبر إلى طراز عجيب من التغيير الثقافى أطلق عليه اسم «الحافز الإشعاعى». ويحدث ذلك عند ما يريد شخص فى جماعة أن ينافس نشاطاً معيناً تمارسه جماعة أخرى ويبذل مجهوداً يكاد يكون مستقلا عن مجتمعه لتحقيق هذه الغاية .. وبهذه الطريقة اخترع البورسلين فى أوربا أثناء القرن الثامن عشر بعد أبحاث كثيرة لا لشىء إلا لينافس ويتساوى مع البورسلين الصينى الذى ظل يصدر إلى أوربا حوالى مائتى عام . ولقد كان من الجائز ألا يصنع هذا الاختراع اطلاقاً لولا هذا الحافز الخارجى . . والأمر نفسه صحيح أيضاً بالنسبة لاختراع سيكوبوا للكتابة باللغة الشروكية التى تتألف من حروف تشبه حروف اللغة الإنجليزية ولكنها تمثل مقاطع فى اللغة الشروكية . ولقد استمد سيكوبوا فكرة الكتابة من الأمريكيين ، واستمد الأشكال من الحروف الرومانية ثم استخدم الأشكال استخداماً مغايراً . . استخداماً كان يستغرق عدة قرون لو أن مجتمعه أراد الوصول إليه .

وهنا تبرز بعض المبادىء العامة ، أحدها أنه يمكن طمس

الأفكار بالقوة بينما لا يمكن أن تُعَلَّمَ الأفكار بسهولة وبحيث تستمر إلى الأبد باستعمال القوة . . وثانيها أن أكثر الوسائل كفاية لتحطيم إحدى الأفكار أو مجموعة من الأفكار هي القضاء على البنيان الاجتماعي الذي نعيش فيه وإعادة بناء مجتمع على طابع مغاير مع استبعاد الفكرة غير المرغوب فيها . وبالمثل فإن أحسن وسيلة لغرس إحدى الأفكار ، هي أن نجعل المجتمع الذي يستضيفها يهضمها بقدر المستطاع ، وذلك بأن نجعلها جزءاً من بنيانه الاجتماعي ، فتصبح شيئاً يجب أن يتعلمه كل طفل ويقبله كل راشد كقضية مسلم بها ، كما يجب أن يتولى تعليمها الأهالي أنفسهم أو المبشرون المقيمون في المجتمع دائماً وليس الإخصائيين الزائرون . . ومن ثم فإن من المحتمل أن ينمحي أثر الأفكار الإنجليزية في الهند أكثر مما ينمحي أثر الأفكار الرومانية في بلاد الغال ، لأن الرومان اختلطوا بهم بينما لم يختلط البريطانيون بالهنود إلا نادراً .

وعلاوة على ذلك ، يجب على من يدرس « هجرة الأفكار » أن يحكم على الشخصيات ويتساءل : من كان الأشخاص الرئيسيون الذين أدخلوا كل فكرة جديدة من الخارج ، ومن الذين تزعموا قبولها بداخل المجتمع . . ولسوف يدهشنا أن نجد كيف أن

أشخاصاً قلائل يستطيعون التأثير فى مجتمع كبير ، بشرط أن تكون وسائلهم عالية الكفاية ، وقوة إرادتهم مجردة من المرونة . لقد كانت بعثات الجزويت التى غيرت تاريخ العالم تتكون من عشرات قلائل من الرجال . . فكان زعماء الحركة الحديثة فى اليابان حوالى مائتين أو ثلثمائة فقط ولكنهم حركوا الجبال . وهذا هو السبب فى أنه — عند ما تكون فنون الدعاية جيدة كما هو الحال فى العصر الحديث ، وعند ما تتأرجح القرارات الاجتماعية والثقافية بتأثير عدد قليل نسبياً من الرجال — يجب على المجتمعات العصرية الكبيرة أن تكون على استعداد لمناهضة الدعاة الذين يعملون علناً أو فى الخفاء .

(تساءل الفيلسوف الصينى هوشيه : لماذا نجحت اليابان هذا النجاح العظيم فى بلوغ مستوى مرتفع من الحضارة فى حين أن الصين لم تنجح مثلها ؟ . . وتساءل أيضاً : لماذا تتغير اليابان تغيراً روحياً رغم التغيير الغربى الكبير الذى طرأ عليها ؟ (لاحظ همجية جيشها والبدع البدائيه التى يتمسك بها شعب اليابان) . . ويجيب هوشيه على ذلك بأن السبب هو أن اليابان كانت دائماً دولة ذات سيادة يمكن أن تُفرَض التغييرات فيها من السلطات العليا وتقبل بصفة رسمية ، أما الصين فيمكن أن تغَير بالحركة

فقط منذ أن دمرت نظام مانشو الملكى . وعلى كل حال لقد ألقى هوشيه هذا السؤال وأجاب عليه قبل حدوث الثورة الشيوعية فى الصين . فعلينا أن نرى الآن إن كانت السلطة التى تُفْـرَض من أعلى ويُمارِس تنفيذها زعماء من الوطنيين المدربين على فنون الدعاية الأجنبية ستنجح أيضاً فى تغيير الصينيين أم لا) .

إن على المؤرخ الذى يدرس هذه الأمور أن يقدر أيضاً أهمية وتأثير البدع التى يصفها ، وهنا أيضاً يجب أن يكون مستعداً لملاقاة انعدام الانسجام الهائل بين الأهمية الواضحة والتأثير النهائى لكل شىء جديد .. مثال ذلك ، أنه سيضطر إلى التمسك بحقائق منها أن المخدر المكسيكى بيوتل Peyotl أصبح أساس طقس دينى هام بين القبائل الهندية التى تقطن الجنوب الغربى من الولايات المتحدة ، وان البن العربى كان يوماً منبهاً ثميناً فى النشاط السياسى بإنجلترا ، وأن التبغ الذى تستورده انجلترا أصبح الآن عاملا حيوياً فى السيكولوجية الإنجليزية والاقتصاد البريطانى أيضاً .. فإذا كان المؤرخ مستعداً لانعدام التناسق هذا (ولا يتوقع أن يتمكن من وضع « قوانين » لبحثه لعدة سنوات) فإنه سيمضى فى بحث مدى تأثير الأفكار المختلفة المستوردة . . وسيفرق

بين الأفكار التى تسربت إلى المجتمع من أحد المداخل ولكنها لم تنتشر إطلاقاً ،وتلك التى تنقلت بين عدة مستويات وقبلت على نطاق واسع : عليه أن يحدد البدع التى أثارت معارضة قصيرة الأجل أو طويلة الأمد أو سلبية أو عنيفة ، وتلك التى قبلت بلا عناء . كما أن عليه أن يحاول أن يكتشف لماذا نسى الناس بعض هذه البدع وهجروها بمرور الزمن ، بينما وطدت بدع أخرى قدمها فى المجتمع الذى غزته .

كذلك يجب على المؤرخ الذى يبحث هذه الأفكار (كما قال أحد علماء الانثروبولوجيا) أن يستخدم « الزمن كبعد » . يجب عليه أن يحاول أن يحدد بالدقة اللحظة التى دخل فيها النفوذ الخارجى فى الثقافة التى يدرسها ومعدل حركته ، ومدى بقائه ، والفترة التى بقيتها آثاره الأخيرة بعد سحب هذا النفوذ . وغالباً ما سيضطر إلى مقارنة الماضى بالحاضر ، ولن تكون مثل هذه المقارنة فى مصلحة الحاضر دائماً .

خذ أمثلة سهلة ، ولكنها كثيراً ما تغفل ، من ثقافتنا . إن معظم كتاب اللغة الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والإيطالية والألمانية أيضاً تلقوا تدريباً على اللغة اللاتينية ، وكثيرون منهم درسوا اللغة اليونانية أيضاً . بيد أن ميلتون كان أستاذاً أكفأ

بكثير من معظم أساتذة الكلاسيكيات فى الوقت الحاضر . ولقد حصل شكسبير على محصول من اللاتينية وهو فى المدرسة أكثر مما يحصل عليه أغلب الشباب العصرى فى الكليات . ومع ذلك فقد مضى فى مطالعة الكلاسيكيات مترجمة وبلغتها الأصلية طول حياته الابتكارية . ولم يكن كيتس نابغة لم يتلق تعليما ، إذ كان شاعراً كلاسيكياً مدرباً ، وعندما كان تلميذاً ترجم مؤلف فرجيل « أنيد » بالنثر .. ولقد نحا فكتور هوجو نحو فرجيل جزئياً ، وجزئياً نحو جونيفال الشـــاعر الهجاء .. وكانت فكرة والت هويتمان عن كيفية الحصول على البهجة هى أن يركب سيارة أوتوبيس مكشوفة ويقرأ مؤلفات هوميروس بصوت عال .. وكان ت . س اليوت يعرف لغات كثيرة كما كان رئيساً للاتحاد الكلاسيكى البريطانى . وقد استطاع تنسون أن يحفظ أشعار هوراس الغنائية عن ظهر قلب قبل أن يبلغ العاشرة من عمره .

إن بعض المربين المضللين فى الولايات المتحدة وفى عدد قليل من البلادالأخرى يعتقدون أن كل تغيير هو بالضرورة تقدم ، وأن نبذ الشىء الثابت طريقة مؤكدة لتحسين المجتمع . وقد بذلوا قصارى جهدهم للقضـــاء على تدريس اللغتين اللاتينية واليونانية فى المدارس والكليات ـــ ولعل ذلك انعكاس غير

شديد لمقاومة السياسة القديمة المضللة التى كانت تنادى بوجوب جعل دراسة اللغات الكلاسيكية إجبارياً .. فماذا ستكون النتيجة؟

إن فى استطاعتنا أن نرى تأثير هذا النشاط الآن فى انخفاض مستوى الأدب بشكل مؤلم خلال الثلاثين عاماً الأخيرة رغم كثرة المدارس التى أنشئت . ويبدو انخفاض مستوى الأدب فى ارتفاع مستوى الدجل فى الأدب ، وفى بعض حقول التدريس وفن التعليم ، وفى نمو الفكرة المضحكة التى تقول بأن النشاط العقلى بلا تدريب يكفى لتمكين الشخص من تأليف مسرحية أو إلقاء محاضرة أو كتابة قصة .. ولهذا فإن صغار الأدباء يقدمون على تدريس ميلتون أو تأليف كتب من شوسر بدون أن يستطيعوا قراءة الكتب التى تغذى بها ميلتون وشوسر طوال حياتهما . وثم رجال جعلوا من أنفسهم فلاسفة ، وراحوا يناقشون آراء أفلاطون وارسطاليس بغير أن يستطيعوا قراءة مؤلفات أفلاطون وأرسطاليس ومعارضيهما وخلفائهما . إن أنصاف المتعلمين مثل عزرا بوند يكتسبون شهرة كرجال متعلمين . وأسوأ من ذلك كله ، أن المستويات الحقيقية لتقدير وفهم الكتب العظيمة آخذة فى التلاشى تدريجياً من عقولنا ، حتى لقد بدأنا نعتقد أن القصد من هذه الكتب هو التسلية فقط ، وأنه

ينبغى على مؤلفيها أن يضمنوا جميع أسرارهم كتاباً واحداً وإلا فإننا ننصرف عنهم قائلين أنهم « ليسوا عصريين » . ولعلك تلاحظ أن هذا كله يقترن بارتفاع مدمر فى الاضطراب الاجتماعى والعقلى ، لأنه كلما خويت عقول الناس كلما سهل أمر إشاعة الاضطراب بينهم .. ولعلك لاحظت أيضاً أن الأدب بدأ ينحو نحواً مضللا ويميل إلى العنف ، ومن ثم فمن غير المحتمل أن ينتعش تأليف الكتب القيمة طالما انصرف معظم القراء إلى مطالعة القصص الطويلة منها والقصيرة ، ومشاهدة الأفلام السينمائية ، وتمثيليات التلفزيون ، وربما قراءة كتب التاريخ الشعبية ، ولعلك لاحظت أيضاً أن المجلات الثقافية الدورية التى كانت تبيع عشرات الألوف من النسخ فى عام ١٨٩٠ عندما كانت أمريكا لا تزال بلاداً صغيرة فقيرة ، قد بدأت تتنحى عن مكانتها للمجلات التافهة المملوءة بالسخافات والصور الخليعة .

إن على المؤرخ الذى يكتب عن الثقافة الغربية أن يحسب حساب هذه التغييرات جميعاً .. فإذا كان ممن تلقوا تعليما كلاسيكياً فسيستشعر الانقباض . عليه أن يتكهن بمجىء عصر أسود آخر ، أم لعله سيكون عصر النيون مملوءاً بالراحة والغاز والإعلان ، دون أن يشبه الإمبراطورية الرومانية الأخيرة . بيد أن هذا

المؤرخ لن يلبث أن يستشعر الانتعاش ويعاوده الأمل ، حينما يعلم أن مثل هذه الأشياء حدثت من قبل ولكنها لم تُغرِق الحضارة ، وان كانت قد جنحت بها إلى الشاطىء الرملى الضحل حتى ارتفع مد التقاليد والتفكير الابتكارى فرفعها من فوق الرمال وانطلق بها مرة أخرى إلى عرض البحر .. سيجد هذا المؤرخ عمله شبيهاً بالعمل العظيم الذى حققه رجال مثل كاسبودوراس الذى مضى فى دراسته ، ونقل الكتب الثمينة فى « شانجرى — لاى » بينما كان العالم يجنح أكثر فأكثر إلى الهمجية خارج جدران منزله .. وعلى هذا المؤرخ أن يذكر الكلمات التى قالها واحد من أنبل الكتاب والمفكرين الأمريكيين رالف والدو أمرسون ، الذى قال :

« قد تدوم شهرة المؤلفين الشعبيين ليلة ، ولكن موسى وهومر سيخلدان إلى الأبد .. فلن يوجد فى هذا العالم ، وفى وقت واحد ، أكثر من اثنى عشر شخصاً يقرأون أفلاطون ويفهمونه — ولن يوجد عدد كاف من الأشخاص الذين يبدون استعداداً لشراء أحد مؤلفاته . ومع ذلك فإن هذه المؤلفات تصل إلى كل جيل لأجل هؤلاء الأشخاص القلائل ، وكأنما يرعى الله عز وجل هذه المؤلفات بعنايته .. لقد كتب الخلود

والدوام لهذه الكتب دون بذل أى مجهود ، سواء أكان صديقاً أم عدواً . وذلك بسبب جاذبيتها الذاتية أو لأهمية محتوياتها لعقل الإنسان الوفى » .

لعلك تقول أن تلك الأفكار سوداء . . وإنها لكذلك . . وأما أنا فلا أصدق أن الأدب الكلاسيكى والأدب الجيد يعانيان من نزع الموت ، ولكنى واثق من أنهما عانيا من سلسلة من الحملات العنيفة التى شنها عليهما أناس يعترفون بأنهم معلمون ، وأن هذه الحملات ، بقدر ما هى عنيفة مخطئة فى حكمها ، ما زالت مستمرة حتى اليوم . . فإذا تعرضت العلوم لمثل هذا الهجوم العنيف ، فمن المحتمل ألا يكون لدينا غير عدد قليل من العلماء فى غضون جيل أو اثنين ، وأن تقل جداً وسائل الرفاهية التى ننعم بها ووسائل التخلص من الألم التى يغدقها العلم علينا .. وإذا هوجم الفن والموسيقى هجوماً عنيفاً فإننا سرعان ما نفقد روائعها ولا يتبقى لنا إلا التفاهات والنكرات من المؤلفين والملحنين باعتبارهم خلفاء لباخ ورمبراندت . . وإذا استمر اضمحلال الأدب — ليس فقط الأدب اليونانى واللاتينى وإنما الأدب الرفيع بجميع اللغات بما فيها لغتنا — فيمكننا أن نتوقع أن عدد الشعراء المجيدين ، وكتاب التمثيليات والفلاسفة ورواة

القصص والنقاد والمعلمين الأكفاء الذين سيظهرون بيننا سيتضاءل ويتضاءل .. ولقد قال لى أحد زملائى الذين أعجب بهم تماماً ، وكان من قبل أستاذى ثم أصبح أخيراً صديق . . قال لى ذات مرة بأنه مقتنع أن الهدف الذى كان يسعى إليه من ثورة فى التعليم هو ، أن يجعلوا كل شخص آخر على مثل حظهم من الجهل ، فهل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً ؟ وإذا كان صحيحاً هل تصدق أنه من الجائز أن ينجحوا فى بلوغ هذا الهدف ؟

٭ ٭ ٭

هناك سؤال آخر يتعلق بدراسة حركة الأفكار ، ولعله أصعب الأسئلة جميعاً .. وهذا السؤال هو : ما هى الدوافع التى حفزت الناس إلى قبول فكرة غير مألوفة ؟ لقد استطاع علماء النفس والاجتماع أن يصلوا إلى بعض هذه الدوافع ... وليس من شك فى أن الخوف هو أكثرها وضوحاً . . . فالخوف من تعرض بلادهم للغزو هو الذى دفع بعض المتعلمين اليابانيين إلى الاهتمام بنظام العالم الخارجى وذكاء أبنائه . . وكان الخوف هو الذى جعلنا حديثاً نسعى إلى تفجير الذرة .. لقد قال ثاكايداديس إن الحرب معلم عنيف ، ولكنى أقول إن الخوف معلم سريع كفء . . ولقد تقدم التفكير الإنسانى تقدماً واسع الخطى عن طريق الخوف .

وثم دافع آخر هو الكبرياء ، أى الرغبة فى الكرامة والاعتبار .. إذ يبدو أن إلمام الشخص بأفكار نشأت خارج دائرته الخاصة غالباً ما يدل على أن هذا الشخص يملك عقلاً أكبر وأكثر حساسية مما يملكه زملاؤه — مثل امتلاك أثاث أجنبي أو ملابس مستوردة . وقد يكون هذا الدافع سلبيا ، إذ أن بعض — إن لم يكن كل — المجتمعات ضيقة محدودة للغاية ، ولكنه (أى الدافع) قد يكون أيضاً وضيعاً أنانياً حتى ولو كانت نتائجه حسنة .

والدافع الثالث هو الشهية ، أى الرغبة فى المتعة والراحة .. لاحظ كيف انتشر التدخين ومضغ اللبان فى جميع أرجاء العالم . لاحظ التغيير الكبير الذى طرأ على عادات فرسان الحروب الصليبية عندما رأوا الثياب الفاخرة التى كان الشراكسة ينعمون بها والأثاث المريح الذى كانوا يستمتعون به .

وهناك دوافع أخرى يعتبرها علماء النفس أقل أهمية ، ومع ذلك فإنها أيضاً ذات تأثير .. وأحدها الاهتمام باللعب : الألعاب النشطة والألعاب التى تحتاج إلى استعمال الذهن . . فكر كيف انتشر لعب الشطرنج والجولف والورق فى جميع أنحاء العالم . . وفكر أيضاً فى قصص الرحلات والقصص العجيبة ، وما يبديه

الناس من رغبة فى الزينة سواء أكانت فى الملابس أو الفن .

وليس من شك فى أن رغبة الإنسان فى العلم من أجل العلم ، لا من أجل الحصول على الثراء أو تأمين سلامته أو الحصول على منفعة أكثر من الحياة المادية ، لا شك فى أن هـذه الرغبة أهم بكثير ، وأعظم دواماً من الخوف أو الكبرياء أو الشهية . .

ولقد بدأ أرسططاليس ميتافزيقيته بقوله :

« من الطبيعى أن جميع الناس
يرغبون فى الحصول على المعرفة »

وعلى الرغم مما نشعر به من انقباض بسبب انحطاط الثقافة ، وبسبب التأثيرات القاتلة للنظريات التعليمية الزائفة ، فإننا نستطيع دائماً أن نشعر بالعزاء كلما فكرنا فى هذه الحقيقة .

* * *

دعنا نستعرض الآن كل ما مر بنا من حديث .. لقد بدأنا بأن قلنا بأن فى الامكان كتابة التاريخ بعبارات من حركة الأفكار كذا بعبارات من السياسة والاقتصاد . وضربنا الأمثلة على هذا الرأى ، الحياة السياسية والاجتماعية ، بذكر تاريخ التغييرات العظيمة التى حدثت فى اليابان وتركيا وروما وأسبانيا وأمريكا الأسبانية الهندية ، ثم فى الدين والفن بذكر الأعمال الجليلة التى

حققها الفنانون اليونانيون الذين ترجموا التفكير البوذى ، واستخدام المسيحيين للرموز الوثنية ، وبعثات المبشرين البوذيين والجزويت . . وتحدثنا بعد ذلك عن الأثر الكبير لحركة الاختراعات من بلد إلى آخر ، وضربنا لذلك أمثلة بالورق والمحاصيل الزراعية والصور المتحركة والراديو .

وانتهينا بقولنا إن المؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا وعلماء النفس هم الذين أوجدوا هذه الطريقة التى يجب أن يُنظَر بها إلى التاريخ . . ووصفنا بعض الطرق التى يجب أن تُستَخدم فى الدنو من هذه المادة ، وهى ليست « طرقاً علمية » وإنما هى طرق منطقية ؛ ومع المنطق يجب أن يوجد الخيال والتقدير الأخلاقى لأن الناس يحبون القوة ولهم شهية ، كما أنهم يتذوقون الجمال ويعجبون بالروعة ، ولقد ملأوا العالم بالمدهشات والأعاجيب عن طريق إشراك الآخرين فى إنتاج عقولهم .

فإذا قبلنا هذا القول ، ونعنى به أن التاريخ يُصنَع جزئياً بواسطة حركة الأفكار ، فإننا نرى ما بعد ذلك . . إن فترة تقدم الحضارة هى فترة تنتقل فيها الأفكار بحرية من عقل إلى عقل ومن بلد إلى آخر ، ومن الماضى إلى الحاضر . . أما العصر البربرى ، والبلد الهمجى فهما اللذان يحاولان شل الاتصال ،

وحبس الأفكار ، ومعاملتها كما لو كانت سحراً — إما بتعمد حبسها عن الكثيرين ، أو عن طريق سخرية الكثيرين منها بلا مبالاة . وليس من شك فى أن العقل المغلق علامة على الهمجية .. إنه يرفض قبول الأفكار من « الأجانب » ولا يقبل فكرة مستمدة من الماضى .

إن للمتوحشين آفاقاً ضيقة ، أما المتمدينون فيرون كل ما حول العالم ، كما يرون الماضى البعيد ، ولعلهم يرون أيضاً شيئاً من المستقبل القريب .

* * *

إن ما يشجعنا على النظر إلى التاريخ من هذه الزاوية ، هو أنها تعلمنا الأمل .. أنها ترينا كيف أنه من الصعب قتل فكرة حسنة . فالفكرة الجوهرية تشق طريقها عبر الصحارى ، والغابات ، وفوق المحيطات وبين حواجز اللغات ، وكثيراً ما تعيش بعد أفظع الحروب والتدميرات . ومن الجائز أن تظل خاملة عدة قرون ، ولكنها لا تموت ، وإنما تنتعش وتحيا مرة أخرى ، فتشق طريقها وتعبر كل ستار حديدى ، وتنتشر ، وتتكاثر ، وتحقق نتائج لا تشبهها فى الصفة والقوة .. ولقد قارن السيد

المسيح ذات مرة أعظم الأفكار « بحبة الخردل » التي هي حقاً أصغر الحبوب ، ولكنها حين تنمو تصبح أعظم الأعشاب ، ثم تصبح شجرة فتجيء الطيور وتتخذ لها أعشاشاً بين أغصانها . وهكذا الحال أيضاً بالنسبة للأفكار الحسنة .. إنها تعيش أكثر مما يعيش الأفراد ، ولو كانوا أصحابها . . وهي تعمر أطول من المجتمعات .. إن لها قوة مدهشة لا يمكن التنبؤ بها ، من حيث قدرتها على البقاء ومعاناة التغيير ، بينما تظل محتفظة بحيويتها. وعندما نتعقب تاريخ إحدى هذه الأفكار ، فمن السهل علينا أن نرى لماذا قيل أن العقل هو الصفة التي يشاطر الإنسان فيها الله الحي الباقي عز وجل .

انتهى

يتناول هذا الكتاب بالدراسة الواعية مرحلة من مراحل هجرة الأفكار، كما يحوي من الأفكار الفذة الجريئة ما لا تتسع آلاف الصفحات لتناولها بالتفصيل. فرءوس الموضوعات التي يتناولها المؤلف تندرج تحتها تفصيلات كبيرة وكثيرة ومتشعبة، لكنه ضرب عنها صفحا خشية أن تتشعب الموضوعات وتفلت خيوطها من بين أيدي القارئ.

الغلاف... د. خالد سرور



www.gocp.gov.eg

الثمن: جنيهان